

THE RHINE

BY VICTOR HUGO

TRANSLATED BY D. M. AIRD

الراين

تأليف: فيكتور هوغو

مع رسوم إيضاحية

الناشران: بوسطن- إيستيس ولوريات

ترجمة من الفرنسية للإنجليزية: دي. أم. أيرد

ترجمة عربية: عمار جمال

الراين الفصل الأول

من باريس إلى فرتي سو جوار.
دامارتين: أدبها ومعالمها. - الحادث ونتيجته.
عربة ألمانية. - متع السفر الريفية. - الأحذب الفيلسوف والدرك المنطقي. - مو ومعالمها.

بدأتُ رحلتي من باريس منذ حوالي يومين. ساعياً في دربي على طريق مو، تاركاً سانت دينيس ومونتمورنسي على اليسار، صوّبتُ عيني على الأرض المرتفعة في أسفل السهل، لكنّ الانعطاف على الطريق سرعان ما أخفاها. في الرحلات الطويلة، لدي ولعٌ غريب بالمراحل القصيرة، كما أكره أن أكون مثقلاً بالأمتعة، وأحبُّ أن أكون وحدي في عربتي مع صديق طفولتي، فيرجيل وتاسيتوس.

عندما سافرتُ في اتجاه سواسون قبل بضع سنوات، سلكْتُ طريق شالونز، الذي لا يحوز الآن سوى على قليل من الأهمية بسبب المبتكرين، أو كما يصفون أنفسهم. لم تعد نوتل يودوا تتباهى بالقلعة التي بناها فرانسيس الأول، وتحول القصر الرائع لدوق فالوا في فيلييرز كوترتس إلى منزلٍ فقير. ترى هناك، كما في كل مكان تقريباً، نحت ورسم عقول العصور الماضية، نعمة القرن السادس عشر.

برج دامارتين الضخم، الذي ترى منه بوضوح مونمارتر على بعد تسعة فراسخ، سُويَ بالأرض. تسبَّب شكله العمودي المشابه للسحلية إلى ظهور قول شائع لم أدرك كنهه جيداً: "كقلعة دامارتين التي تنفجر بالضحك".

منذ أن حُرمت من الباستيل القديم، حيث لجأ أسقف مو وسبعة من أتباعه إثر خلافه مع كونت شامبانيا، توقفت دامارتين عن اجتراح الأمثال. هي الآن جديرة بالملاحظة فقط بسبب التراكيب الأدبية المشابهة لهذه التدوينة التي نسختها حرفياً من كتاب ملقى على طاولة نزل: -

دامارتين (سين ومارن): بلدة صغيرة تقع على تل. اشتهرت بشكل أساسي بصناعة الدانتيل. الفندق: القديسة آن. معالم: كنيسة الرعية، رواق. 1600 نسمة".

الفترة الزمنية القصيرة المخصصة للعشاء والتي يسمح بها طغاة مركبة الديليجنس، ويُطلق عليهم اسم السائقين، لن تسمح لي بالتحقق مما إذا كان صحيحاً أن الألف وستمئة مواطن من سكان دامارتين كانوا حقاً مثيرين للفضول. في أجمل طقس وعلى أفضل طريق في العالم بين كلاي ومو، تحطمت عجلة مركبتي. (أنا شخص يواصل رحلته دائماً، وإن تخلت عني العربة، سأتحلى عنها).

في تلك اللحظة مرت عربة صغيرة من توشار تحتوي على مقعد شاغر واحد فقط، أخذته، وبعد عشر دقائق من الحادث كنتُ في طريقي مرة أخرى، جاثماً على الإمبراطورية، أجلس بين رجلين، أحذب وشرطي.

انظر إلي الآن فورتى سو جوار، البلدة الصغيرة جداً بجسورها الثلاثة، وطاحونتها القديمة المدعومة بخمسة أقواس في وسط النهر، وسرادقها الرائع من أيام لويس الثالث عشر. يقال إنه ينتمي إلى دوق سان سيمون، وهو الآن في يد بقال.

إن كان السيد دي سان سيمون يمتلك هذا السكن القديم حقاً، فأنا أشك كثيراً في ما إذا كان قصر مولده في فيرت فيدام يتمتع بمظهر أكثر فخامة وجلالاً، أو أنه كان أكثر ملاءمة مع رتبته كدوق ورجل نبيل من قلعة صغيرة ساحرة في فورتى سو جوار.

الوقت مناسب للسفر. تمتلئ الحقول بالعمّال الذين ينهون فترة الحصاد وبينون أكواماً ضخمة من المحاصيل في أماكن مختلفة، والتي في حالتها نصف المكتملة لا تختلف عن أهرامات سوريا التي هي حالة خراب. حواف الذرة مرتبة على جبين التلال بحيث تشبه ظهر الحمار الوحشي. لا أبحث في السفر عن الحوادث، أرغب في مشاهد جديدة تثير الأفكار وتخلقها، تلك الأشياء الجديدة تكفيني. إلى جانب ذلك، أنا راضٍ عن القليل، متى رأيتُ الأشجار، الخضرة، تواجدتُ في الهواء الطلق، مع طريق أمامي وآخر خلفي، سأشعر بالرضا.

ينبسط الريف. أحبُّ الأفق الممتد إن كان جبلياً، فأنا أحب المناظر الطبيعية، وهنا دائماً يُقدّم المرء نفسه للمشاهد. أمامي وادٍ ساحر، إلى يميني ويساري نزوات التربة الغريبة، تلالٌ ضخمة تحمل علامات الزراعة، ومربعات تسرُّ الأنظار، هنا وهناك مجموعات من البيوت المنخفضة، تبدو وكأنَّ أسطحها تلامس الأرض. يوجد في نهاية الوادي خطُّ طويل من الخضرة، مع تيار من الماء، يعبر جسراً حجرياً صغيراً -تفكك جزئياً بطول الزمن- يعمل على توحيد الطريقين السريعين.

عبرت عربة هذا الجسر وأنا هناك، عربة ألمانية هائلة، وضخمة، ومطوقة ومربوطة بحبال، كان لها مظهر بطن غار غانتوا، تسير على أربع عجالات بواسطة ثمانية خيول. أمامي، بالقرب من التل المقابل المشرق في أشعة الشمس، يأخذ الطريق مساره، حيث تشبه ظلال الأشجار الطويلة باللون الأسود مشطاً ضخماً تنقصه عدة أسنان. حسناً، الأشجار الكبيرة، ظلّ المشط الذي ربما يضحكك، العربة، الجسر القديم، الأكواخ

المنخفضة، خلقوا المتعة وجعلوني سعيدًا. وادي مثل هذا، مع وجود شمس لامعة فوقه، يسعدني دائمًا. نظرتُ حولي واستمتعتُ بالمشهد لكن زملائي المسافرين كانوا يتشاءمون باستمرار. عندما يتم تغيير الخيول، كل شيء يسليني. بعد فرقة السوط، وضجيج حوافر الخيول، وصلصلة السرج، توقفنا عند باب نُزل.

لمحتُ دجاجة بيضاء على الطريق السريع ودجاجة سوداء بين العُليق. عجلة مكسورة قديمة أو مسلوكة، في زاوية، وأطفال في أوجّ المرح، بأوجه جميلة ولكن بعيدة كل البعد عن النظافة، يلعبون على كومة من الرمل. يتدلى فوق رأسي تشارلز الخامس، وجوزيف الثاني أو نابليون، من مشانق حديدية: كانوا أباطرة أقوىاء وهم يصلحون الآن فقط ليكونوا بمثابة إشارات لنُزل. البيت في حالة ارتباك مع أصوات تصدر أوامر متناقضة. على العتبة، ينشغل السائسون وعاملات المطبخ بتمثيل المشهد الريفي، تمارس كومة الروث الحبّ مع حوض الغسيل. وبالنسبة لي، استفدتُ من موقعي المرتفع في الجزء العلوي من العربة للاستماع إلى ثرثرة الأحذب والشرطي، والاستمتاع بالمستعمرات الصغيرة الجميلة لأشجار الخشخاش القزمية التي تشبه واحات على سطح أسود.

علاوة على ذلك، كان الشرطي والأحذب فيلسوفين. لم يكونا متغطرسين. تجاذبا أطراف حديث حميم، الأول دون أن يزدري الأحذب، والأخير دون أن يزدري الشرطي. دفع الأحذب ضريبة قدرها ستة فرنكات في بلدية جوار، في جوفيس آرا العتيقة، وشرح الأمر للشرطي. وعندما أُجبر على منح النقود لعبور الجسر فوق المارن، أصبح غاضبًا من الحكومة. لم يدفع الشرطي أي ضرائب لكنه روى قصته بسذاجة. قاتل في عام 1814 مثل الأسد في مونتيراييل، كان مجندًا حينها. في عام 1830، في (يوليو)، خاف وهرب، وانضم مذكًا إلى رجال الدرك. فاجأ هذا رفيقه في العربة لكنه لم يذهلني. مجند يبلغ من العمر عشرون عامًا فقط، فقير وشجاع. رجل درك، لديه زوجة وأطفال وحصان خاص به، جبان. كلها صفات للرجل نفسه، وإن كانت ليست في ذات الطور من الحياة. الحياة نوع من اللحم، وحدها الصلصة تجعلها شهية. لا أحد أكثر شجاعة من مُستعبد في مطبخ السفن. الأكثر قيمة في هذا العالم ليس الجلد بل المعطف. من لا يملك شيئًا لا يعرف الخوف.

يجب أن نعترف أيضاً أنّ العهدين كانا مختلفين تماماً. كل ما هو رائج له تأثير على الجندي كما على البشرية جمعاء، الفكرة التي تصدمنا إما تُحَقِّز أو تُثَبِّط. في 1830 اندلعت ثورة فشعر الجندي بالثقل، وهبطت معنوياته بقوة التأمل التي تساوي قوة الظروف. كان يقاتل بأمر من شخص غريب، يقاتل من أجل ظلال خلقها عقل مضطرب. حلم عقل مختل. أخ ضد أخ، فرنسا كلها ضد الباريسيين. على العكس من ذلك عام 1814، حين ناضل المجند ضد أعداء خارجيين من أجل أشياء يسهل فهمها، من أجل ذاته، وأبيه، وأمه، وأخواته، للحرث الذي تركه لتوه، للكوخ الذي رأى دُخانَه ينبعث من بعيد. من أجل الأرض التي طرقها في طفولته. من أجل معاناة ودماء وطنه. في عام 1830 لم يكن الجندي يعلم ما الذي يقاتل من أجله. في عام 1814 فعل أكثر من مجرد المعرفة، شعر بالضرورة، وفعل أكثر من مجرد الشعور به، رآه.

ثلاثة أشياء أثارت اهتمامي كثيراً في مو. إلى اليمين لدى دخول المدينة، بوابة غربية تؤدي إلى كنيسة قديمة "الكاتدرائية"، وخلفها مسكن قديم نصف مُحَصَّن محاط بأبراج. هناك أيضاً فناء دخلت إليه بجرأة، حيث رأيت امرأة عجوزاً مشغولة بالحياسة. لم تسمعني السيّدة الطيبة مما أتاح لي فرصة تفحص درجٍ بالغ الجمال مصنوع من الحجر والخشب، مدعم بقوسين ويتوج بهبوط متقن، يؤدي إلى مسكن قديم. لم يكن لدي الوقت لأضع رسماً، وأنا آسف لذلك، لأنه كان أول درج من ذلك النوع رأيته في حياتي، بدا لي أنه من القرن الخامس عشر. مبنى الكاتدرائية ذو مظهر نبيل. بدأ تشييده في القرن الرابع عشر واستمر حتى القرن الخامس عشر. شهد عديد من الإصلاحات مؤخراً لكنها لم تنته بعد. اكتمل برج واحد من الاثنين اللذين خطط لهما المعمارى، بينما يظهر الآخر مخبأ تحت غطاء من الألواح الصخرية. المدخلان الأوسط والأيمن من القرن الرابع عشر، والمدخل على اليسار من الخامس عشر. جميعها بارعة الجمال، رغم أنّ الزمن قد ترك أثره على مظهرها المهيّب. حاولت فك رموز النقوش البارزة، تمثل مقدمة المدخل الأيسر تاريخ يوحنا المعمدان، لكن أشعة الشمس التي سقطت على الواجهة منعتني من إرضاء فضولي.

الكنيسة بديعة من الداخل: يوجد على المنصة منحني كبير، وعند مدخلها مذبحان جميلان من القرن الخامس عشر، لكن لسوء الحظ، لطّخهما الذوق الصادق للريفين بلوحات زيتية صفراء. على يسار الجوقة رأيت تمثالاً رخامياً جميلاً للغاية لمحارب

من القرن السادس عشر، في وضع الركوع وبدون دروع، ولم تكن عليه كتابة. بعكس الآخر الذي يحمل نقشاً بالغ الأهمية دونه لن تتمكن من اكتشاف الملامح الصارمة لبيني بوسيه في الرخام الصلب. رأيتُ عرشه الأسقي من الطراز الرفيع للغاية، على طراز لويس الرابع عشر. لكن بسبب ضغط الوقت لم أتمكن من زيارة حجرة أسقيته الشهيرة. هاكم حقيقة غريبة، كان هناك مسرح في مو قبل أن يوجد مسرح في باريس كما هو مكتوب في مخطوطة محلية تقول إنه شُيّد في عام 1547. عُرضت في المسرح حينها قطع درامية ذات طبيعة غامضة، لعب فيها رجل اسمه باسكالوس دور الشيطان، ليحتفظ المكان بعدها بذات الاسم. في عام 1562 قام بتسليم المدينة إلى الهوغونوتيين. شنقه الكاثوليك في العام التالي، جزئياً لأنه سلم المدينة، ولكن بشكل رئيسي بسبب لقبه "الشيطان". يوجد في الوقت الحاضر عشرون مسرح في باريس، ولكن لا يوجد واحد هنا. يقال إن أهل مو الطيبين يتفاخرون بهذا، فخر أن مو ليست باريس. تزخر هذه الدولة بعصر لويس الرابع عشر. هنا، دوق القديس سيمون في مو، بوسيه في لا فيرتي ميلون، راسين في شاتو تييري، لافونتي، كلهم ضمن مدى اثني عشر ميلاً.

السيد العظيم جار للأسقف العظيم، هنا المأساة تُقوّي الخرافة. لدى خروجي من الكاتدرائية وجدتُ الشمس أخفت نفسها، ما مكّني من فحص الواجهة. أكثر ما يثير الفضول هو الجزء العلوي من المدخل المركزي. تُمثّل الحجرة السفلية جين زوجة الملك فيليب الرابع (فيليب الوسيم)، من المُنكرين الذين بُنيت الكنيسة لهم بعد وفاتها. ملكة فرنسا تسيطر على كاتدرائيتها، تستعرض أبواب الجنة. فتح القديس بطرس لها الأبواب المطوية. خلف الملكة يوجد الملك الوسيم فيليب، بوجه حزين وكئيب. ترتدي الملكة ملابس رائعة منحوتة بشكل جيد للغاية، وتشير بنظرة جانبية وكثف مرفوع بازدراء إلى القديس بطرس، الشحاذ المسكين، وكأنها تقول للملك: "اسمح له بالفوز في هذه الصفقة".

الفصل الثاني

مونتмираيل. - مونتفورت. - إبيرناي.
قلعة مونتмираيل. - أبطال فو. - إعادة صياغة الأفكار والتأملات بشأنها. - قلعة مونتفورت. - مدموزيل جانيت. - كنائس
ومعالم إبيرناي. - حكاية ستروزي وبريسكت. - مهرج هنري الثاني.

استأجرتُ أول عربية قابلتها في فرتي سو جوار بعدما سألتُ: "هل العجلات بحالة جيدة؟" وبمجرد تلقي الرد بالإيجاب انطلقتُ إلى مونتмираيل. لا يوجد ما يثير الاهتمام في هذه المدينة الصغيرة باستثناء المناظر الطبيعية المبهجة في نهاية شارع ما، ومسارين جميلين محاطين بالأشجار. جميع المباني باستثناء القصر ذات مظهر تافه ومتوسط.

غادرتُ مونتмираيل في يوم الإثنين حوالي الساعة الخامسة مساءً، متوجّهاً صوب إبيرناي بعد ساعة واحدة في فو تشومب. وقبل لحظات قليلة من عبور ميدان المعركة الشهير، قابلتُ عربية يسحبها حصان وحمار محملة بشكل غريب، تحتوي على مقالٍ، وغلايات، وسراويل قديمة، وكراسي ذات قعر من القش، مع كومة من الأثاث القديم. في مقدمة العربية يجلس ثلاثة أطفال، شبه عرايا، داخل سلة من نوع ما. في المؤخرة توجد سلة أخرى تحوي عدة دجاجات. يرتدي السائق قميصًا، ويمشي حاملًا طفلًا على ظهره. على بعد خطوات قليلة منه هناك امرأة تحمل طفلًا بين ذراعيها. كانوا جميعًا يسرعون نحو مونتмираيل، كما لو أنها عشية القتال في المعركة الكبرى عام 1814.

قلتُ لنفسِي: "كم عدد العائلات الفقيرة التي شوهدت منذ خمسة وعشرين عامًا تسرع من مكان إلى آخر!"، بيد أنني أخبرت أنه لم يكن انتقالًا بل هجرة. لم يكونوا ذاهبين إلى مونتмираيل بل إلى أمريكا، لا يرحلون على صوت بوق الحرب، بل يندفعون بعيدًا عن البؤس والجوع. باختصار يا صديقي العزيز، كانت عائلة من فلاحي الألزاس

المساكين تهاجر. لم يتمكنوا من الحصول على لقمة العيش في وطنهم الأصلي، لكنهم وُعدوا بواحدة في أوهايو.

كانوا يغادرون بلادهم جاهلين الآيات السامية والجميلة التي كتبها فيرجيل عنهم قبل ألفي عام. سافر هؤلاء المساكين في بهجة بيّنة، كان الزوج يصنع سيرًا جلدًا لسوطه، والزوجة تغني، والأطفال يلعبون، بينما توحى مقتنياتهم بشيء من البؤس والفوضى المُسببة للألم. شعرتُ أنّ الدجاجات نفسها حالتها حزينة.

أذهلتني لا مبالاة الأب والأم. اعتقدتُ حقًا أنه لدى مغادرة البلد الذي رأينا فيه النور لأول مرة، والذي يوحد قلوبنا بروابط عديدة وجميلة، يفرض علينا إلقاء نظرة أخيرة عليه بينما نذرف الدمع على ذكرى مشاهد طفولتنا، على الأرض التي تحوي رماد أجدادنا المتفتت، لكن هؤلاء الناس بدوا غافلين عن كل هذا، وعقولهم منصبة على البلد الذي يأملون فيه الحصول على لقمة العيش.

راقبتهم لبعض الوقت. إلى أين تذهب تلك المجموعة المهزوزة والبهلوانية؟ وإلى أين أذهب أنا؟ وصلوا منعطفًا في الطريق واختفوا، سمعتُ فرقعة السوط وأغنية المرأة لبعض الوقت، ثم هداً كل شيء. بعدها بدقائق قليلة كنتُ في السهول الرائعة حيث جاء الإمبراطور ذات يوم. تغرب الشمس، وتلقي الأشجار بظلالها الطويلة، وللأخاديد التي يمكن تتبعها هنا وهناك مظهر فاتح، والضباب المُزرق في قاع الوادي. بدت الحقول مهجورة، لا يمكن رؤية أي شيء سوى محراثين أو ثلاثة في البعيد، تبدو للعين مثل جنادبٍ ضخمة.

على يساري مقلع حجارة، حيث هناك رحي كبيرة بعضها أبيض وجديد، والبعض الآخر قديم ومسودّ. يستلقي بعضها هنا بلا نظام، ويقف البعض هناك باستقامة، مثل رجال غاضبين على لوح لعبة دامة ضخمة. قررتُ حينها رؤية قلعة مونتمرت التي كانت على بعد حوالي أربعة فراسخ من مونت ميريل. سلكتُ طريق إبيرناي. هناك ست عشرة شجرة دردار شاهقة، ربما الأجل في العالم، تتدلى أوراقها فوق الطريق ويُسمع حفيفها فوق رأس الراكب. لا يسعدني مشهد شجرة في السفر أكثر من الدردار. وحدها تبدو خيالية، ضاحكة على جارتها، تقلب كل شيء وهي تحني رأسها، وتصنع جميع أنواع التكمشيرات من أجل إضحاك المارة في المساء. قيل إنّ أوراق الدردار تتبّت عندما تثبت عيناك عليها. من فورتني إلى المكان حيث شاهدت أشجار الدردار الست

عشرة، يحدُّ الطريق أشجار الحور والأسبوس والجوز فقط، وضع لم يرضني على الإطلاق. ينبسط الريف، ويمتد السهل إلى ما هو أبعد من نطاق العين. فجأة لدى مغادرة مجموعة من الأشجار، نرى على اليمين عددًا من الأبراج، وخزانات الطقس، وأسطح المنازل، يختبئ نصفها داخل منحدر. إنها قلعة مونتمورت.

توقفت عربتي ونزلتُ أمام باب القلعة. إنه حصن رائع من القرن السادس عشر، مبني من الحجر مع جدران الأردواز. لها سور مزدوج، وخندق مائي، وجسر ثلاثي الأقواس وقرية عند سفحها. كل ما حولي ساحر، وتتمتع القلعة بإطلالة ممتدة. لها درج متعرج للرجال ومنحدر للخيول. يوجد أدناه أيضًا باب حديدي قديم يؤدي إلى كوة البرج، حيث رأيتُ أربعة مُحَرِّكات صغيرة تعود إلى القرن الخامس عشر. تتكون حامية القلعة في الوقت الحاضر من خادم عجوز ومدموزيل جانيت التي استقبلتني ببالغ اللطف. لم يتبق من المساكن الداخلية سوى مطبخ، وغرفة مقببة جميلة للغاية تحوي رف موقد كبير، والقاعة الكبيرة (أصبحت الآن غرفة بلياردو)، وكابينة صغيرة ساحرة، مصنوعة من الخشب المطلي بالذهب. القاعة الكبرى عبارة عن غرفة رائعة: السقف بعوارضه المطلية المذهبة المنحوتة، لا يزال كاملاً. رف الموقد الذي يعلوه تمثالان بسيماء نبيلة، ينتمي لأرقى طرز هنري الثالث.

الجدران من العصور السابقة مغطاة بمربعات شاسعة من بساط حائطي مزخرف، تعلوه صور العائلة. أثناء الثورة قام عدد قليل من الأفراد الجريئين من القرية المجاورة بتمزيق البساطات وحرقتها، ما شكّل ضربة قاتلة للإقطاع. استبدلها المالك بنقوش قديمة تمثل مناظر لروما ومعارك كوند العظيمة. منحتُ مدموزيل جانيت لدى مغادرتي ثلاثين سوسًا. حيرها سخائي.

حلّ الليل لدى مغادرتي مونتمورت. الطريق من أبغض طرق العالم، يقود إلى غابة، دخلتها، لذا لم أر شيئاً من إبيرناي سوى أكواخ الفحم التي يشقُّ دخانها طريقه بين أغصان الأشجار. لاح الفم الأحمر لفرن بعيد لبضع لحظات، وأثار صفير الريح الأوراق من حولي. أعلى رأسي، في السماء، كانت العربية الرائعة تقوم برحلتها وسط النجوم، بينما يهرول حُزني البائس بين الحصى.

إبيرناي: نعم، إنها مدينة الشمبانيا لا أكثر ولا أقل. خلفت ثلاث كنائس بعضها البعض: الأولى، كنيسة النساء، بُنيت عام 1037 من قبل تيبوت الأول، كونت شامبين وابن

أوديس. الثانية، كنيسة من عصر النهضة، بُنيت عام 1540 من قبل بيير ستروزي، المارشال الفرنسي سيد إبيرناي الذي قُتل في حصار ثيونفيل عام 1558. الثالثة والحالية، بدت لي مبنى من تصميم السيّد بوتيرليت غاليشي، وهو تاجر بارز، يبدو اسمه ومتجره قريبان من اسم الكنيسة. تم وصف وتلخيص الثلاثة جميعًا بشكل رائع بهذه الأسماء، تيبوت الأول كونت شامبين، بيير ستروزي مارشال فرنسا، وبوتيرليت غاليشي البقال. في الحقيقة الكنيسة الأخيرة عبارة عن مبنى بشع مطلي باللون الأبيض ذي مظهر ثقيل، مع أشكال ثلاثية تدعمُ الإطارات. لم يبق شيء من الكنيسة الأولى والثانية غير قليل نوافذ كبيرة مُبَقَّعة وواجهة رائعة. تعكس إحدى النوافذ تاريخ نوح بسذاجة كبيرة. تم تزيين إطارات النوافذ والواجهة بالجص البشع للكنيسة الجديدة.

بدا لي كما لو أنني رأيتُ أودري بسرّوالة الأبيض القصير وجواربه الزرقاء وياقة قميصه الكبيرة، وهو يحمل خوذة ودرع فرانسييس الأول. رغبوا أن أشاهد معلم البلد: قبو النبيذ الضخم الذي يحتوي على مائة ألف زجاجة. رأيتُ في طريقي حقلاً من اللفت، حيث الخشخاش مزهراً والفراشات حلوة تحت أشعة الشمس. لم أذهب أبعد من ذلك، كما أنّ زيارة الكهف الكبير أبعد من نطاق زيارتي. المرهم العطري لترميم الشعر الذي يُطلق عليه في لا فيرتي "بيلوجين"، يطلق عليه في إبيرناي اسم "فيوثرليكس"، وهو استيراد يوناني. بالمناسبة، كان علي في مونتميراي أن أدفع أربعين سوساً مقابل أربع بيضات طازجة، الأمر الذي صدمني.

نسيْتُ أن أذكر أنّ تيبوت الأول دُفن في كنيسته وستروزي، لكنني بالتأكيد سأعترض أن يكون لدى السيّد بوتيرليت غاليشي مكانٌ داخل الكنيسة الحالية.

يمكن وصف ستروزي نوعاً ما بالرجل الشجاع، بينما سلّي بريسكت مهرج هنري الثاني نفسه ذات يوم بأن دهن أمام كامل أعضاء البلاط العبادة الجميلة للغاية التي يلبسها المارشال لأول مرة. أثار هذا الكثير من الضحك، فلجأ ستروزي إلى أقسى أنواع الانتقام. بالنسبة لي لم أكن لأضحك، كما لن أنتقم أيضاً لنفسي. ماذا يعني تلويث معطف مخملي بالدهن. لم يكن لمزاح القرن السادس عشر أن يثيرني أبداً.

الفصل الثالث

فارين. - شالون. - سانت مينهول.

- الخيال. - اعتقال لويس السادس عشر. - التحية وآثارها. - نوتردام في شالون. - الإهمال الأثري. -
- النقش. - حارس وزوجة وابن قزم. - دير نوتردام دو لوبين. - عاصفه. - فندق ميتر. - كناري نائم. -
- مضيف ومضيعة. - شامبين ودلالة شامبينوا. - مدام سابلير ولافونتين.

بالأمس لدى انحدار النهار، وبينما تتدحرج عربتي بسرعة بقرب سانت مينهولد، كنت أقرأ هذه السطور الرائعة الجميلة:- "Mugitusque bovm mollesque sub arbore somni. Speluncae vivique lacus". أضع يدي لبعض الوقت على كتابي، وروحي مليئة بتلك الأفكار الغامضة، الحزينة لكن حلوة، التي نبهتها أشعة الشمس في ذهني، عندما أيقظني ضجيج عجلات العربات على الممر المرتفع من استغراقي الحالم. كنا ندخل مدينة، لكن أي مدينة؟ كان رد الحوذي "فارين". "اجتزنا شارعًا غامضًا كئيبيًا في مظهره. كانت أبواب ومصاريع المنازل مقفلة، والعشب ينمو في الأفنية.

بعد أن مررنا ببوابة قديمة من زمن لويس الثالث عشر، فجأة، دخلنا ساحة محاطة ببيوت بيضاء صغيرة تتكون من طابق واحد مرتفع. ألقى القبض على لويس السادس عشر أثناء رحلته عام 1791 في هذه الساحة من قبل درويت، مدير مكتب البريد في سانت مينهولد. حينها لم يكن هناك مخفر في فارين. نزلت من عربتي وظللت أنظر لبعض الوقت لهذه الساحة الصغيرة التي ستبدو باهتة بالنسبة لرجل لا يفكر في الأحداث الماضية، أما لمن يفكر فسيكون لها وقع مشؤوم. يُذكر هنا أن لويس عند القبض عليه احتج بشدة على أنه ليس الملك (ما لم يكن تشارلز الأول ليفعله أبدًا)، مال نصف الناس إلى تصديقه، وكانوا على وشك إطلاق سراحه، عندها ظهر السيد إيث، الذي كانت لديه كراهية سرية تجاه البلاط.

وكيهوذا الإسخريوطي قال هذا الشخص للملك: "يوم سعيد يا مولاي". كان هذا كافيًا. تم القبض على الملك. كان معه بالعربة خمسة من أفراد العائلة المالكة. وقد أدى بؤس هذه الكلمات إلى سقوطهم، "صباح الخير، مولاي" للويس السادس عشر، وماري

أنطوانيت، ومدام إليزابيث، والمقصلة من أجل الدوفين، عذاب الهيكل، وللسيدة رويال
النفى وإبادة عرقها.

لاحظت بالفعل إن لم أكن مخطئاً، أنَّ الطبيعة المادية غالباً ما تظهر رمزية غريبة.
كان لويس ينزل منحدرًا سريعًا وخطيرًا لحظة اعتقاله، حيث كان الحصان القائد في
عربتي على وشك السقوط.

رأيت قبل خمسة أيام شيئاً مثل لوح سحب عملاق في ساحة المعركة في مونتيراييل.
اليوم أعبّر ساحة فارين الصغيرة القاتلة التي لها شكل سكين المقصلة. الرجل الذي
ساعد درويت وألقى القبض على لويس السادس عشر هنا كان اسمه بيلود. لماذا لم
يكن بيلوت؟.

تبعد فارين حوالي خمسة عشر فرسخًا من رانس، بالنسبة للحوذي، للعقل، هناك
هاوية، الثورة. استعددت لليل في نزل قديم المظهر للغاية، حيث علقت صورة لويس
فيليب فوق الباب، مع كلمات منقوشة، "إلى جراند مونارك".

خلال المائة عام الماضية برز كل من لويس الخامس عشر وبونابرت وتشارلز
العاشر كل بدوره.

ربما تم القبض على لويس السادس عشر في جراند مونارك، وعندما نظر إلى الأعلى
رأى صورة لنفسه، ملك عظيم مسكين.

تمشيت هذا الصباح في المدينة التي تقع بلطف على ضفاف نهر جميل. تشكل المنازل
القديمة للمدينة العالية التي تُرى من الضفة اليمنى مدرجًا خلابًا للغاية. لكن الكنيسة
التي تقع في الجزء المنخفض من البلدة غير ذات أهمية في الحقيقة. تقع على مرمى
البصر من نزلي، ويمكنني رؤيتها من الطاولة التي أكتب عليها. يرجع تاريخ برج
الكنيسة إلى عام 1766. أقدم من مدام رويال بسنتين. تركت هذه المغامرة الكئيبة
بعض الآثار هنا، وهو شيء نادر في فرنسا. لا يزال الناس يتحدثون عنها.

أبلغني صاحب الحانة أنَّ أحد رجال البلدة النبلاء قد كتب كوميديا عنها. هذا يذكرني
أنه في ليلة الهروب ، عندما جعلوا الدوفين يتنكر في زي فتاة، سأل السيدة رويال إذا
كانوا سيقدمون مقطعًا كوميدياً. كانت هذه هي المسرحية التي ألفها "رجل المدينة
النبيل". أنا مدين بالاعتذار للكنيسة التي زرتها للتو لأنَّ البوابة الموجودة على اليمين
جميلة إلى حد ما. إن لم ترهقك تفصيلاتي المعمارية، فيجب أن تسمح لي بالقول إنَّ

شالون لم تستجب لتوقعاتي تمامًا، على الأقل لم تستجب الكاتدرائية. كما أن الطريق من إبيرناي إلى شالون ليس جيدًا كما تخيلته. يمكنك الحصول على لمحة عرضية عن نهر المارن الذي يوجد على ضفتيه برجان أو ثلاثة أبراج مدببة مثل برج فيكامب، لكن كل البلاد تتكون من سهل، لا شيء سوى سهول. وهو بالطبع شيء جميل جدًا، في غاية الجمال في الواقع. يتنوع التماثل إلى حد ما من خلال العديد من قطعان الأغنام ورعاتها. المظهر الخارجي للكاتدرائية نبيل، ولا يزال هناك بعض الزجاج الملون الثمين، خاصة نافذة الورد. رأيت في الكنيسة معبدًا ساحرًا من عصر النهضة، مع حرف الفاء والسمندل. يوجد خارج الكنيسة برج روماني صارم ونقي جدًا في طرازه، وبوابة لذيذة من القرن الرابع عشر. لكن الخراب شنيع. الكنيسة قذرة، منحوتات فرانسيس الأول مغطاة بطلاء أصفر، والحبيبات مطلية أيضًا. الواجهة تقليد رديء لمواجهة سان جيرمان الخاصة بنا، وُعدت بأبراج الكنيسة ذات الفتحات. كان اعتمادي على هذه الأبراج. ووجدت اثنين، لكن كلتاهما أغطية حجرية ثقيلة مدببة، ذات فتحات إن شئت، وأصيلة كفاية لموضوعها، لكنها مصممة بصورة ثقيلة، مع حليات حلزونية مختلطة بقوس قوطي. ذهبت دون تردد بخيبة أمل رهيبة.

زرت الكنيسة، وإن لم أجد كل ما كنت أتوقعه، وجدت ما لم أتوقعه، أي نوتردام الجميلة جدًا في شالون. ما الذي فكر فيه الأثريون عندما تحدثوا عن سانت إتيان، لم يوفروا كلمة واحدة عن نوتردام؟ نوتردام شالون، كنيسة النساء، ذات الأسقف المقوسة والبرج الرائع الذي يحمل تاريخ القرن الرابع عشر. في المنتصف فانوس مكلل بريش صغير.

تمنح هنا نظرة انقلابية جميلة (لذة استمتعت بها) للمدينة، الطين، والتلال المحيطة. يمكن للمسافر أيضًا الاستمتاع بنوافذ نوتردام الرائعة والمدخل الأنيق من القرن الثالث عشر.

في عام 1793 حطم أهل هذا المكان النوافذ وهدموا التماثيل، دمروا البوابة الجانبية للكاتدرائية وجميع المنحوتات التي كانت في متناولهم. كان لنوتردام أربعة أبراج، تم هدم ثلاثة منها، يشهد هذا على ذروة الغباء الذي لا يتجلى في أي مكان بقدر ما يتجلى هنا.

كانت الثورة الفرنسية مروعة. شهدت ثورة الشامبينيين أعمالاً من أعظم الحماقات. على الفانوس وجدت كتابة منقوشة، من كتابات القرن السادس عشر على ما يبدو: "في 28 أغسطس 1508، صدر السلام في تشال".

"هذا النقش الذي شوه جزئياً، والذي لم يسع أحد إلى حله، هو كل ما تبقى من هذا العمل السياسي العظيم، إبرام السلام بين هنري الثالث والهوغنتونيين، بوساطة من دوق أنجو، ودوق لينكون سابقاً. كان دوق أنجو شقيق الملك، وكان يضع عينه على هولندا، وذا طموحات لما تسيطر عليه إليزابيث إنكلترا، لكن الحرب مع الطوائف الدينية نجحت في إحباط مخططاته.

نسي العالم بأسره السلام، ذلك الحدث السعيد الذي أُعلن في شالون عام 1580، في الثاني والعشرين من يوليو عام 1839. كان من أوصلني إلى هذا الفانوس حارس المدينة الذي قضى حياته في المراقبة، في صندوق ضئيل بأربع نوافذ صغيرة. صندوقه وسلمه هما الكون بالنسبة له. إنه عين المدينة، المفتوحة دائماً، المستيقظة دائماً.

سيكون السهد الدائم مستحيلاً إلى حد ما. الحقيقة أن زوجته تساعد. كل ليلة في الساعة الثانية عشرة يذهب هو للنوم وتذهب هي للمراقبة. في الظهيرة يغيران مكانيهما مرة أخرى، وبالتالي يؤديان جولتهما في الجانب الآخر دون اتصال، باستثناء دقيقة في الظهيرة وأخرى عند منتصف الليل. والقزم الصغير فكاهي الشكل نوعاً ما، والذي يدعونه ابنهم، هو نتيجة دقيقة الالتماس هذه.

توجد ثلاث كنائس في شالون، سانت ألبين وسانت جان وسانت لوب. على بعد حوالي فرسخين من شالون، في طريق سانت مينهولد، تُظهر دير نوتردام دو لوبيين الرائعة نفسها فجأة. لها برج كائن منذ القرن الخامس عشر، مفتوح وبديع مثل قطعة من الدانتيل، رغم أنه محاط بتلغراف ينظر إليه في الأسفل بازدياء كما قد تفعل سيدة عظيمة.

من الغريب أن تأتي على مثل هذا الهيكل الرائع للهندسة المعمارية القوطية في مثل هذه البرية، البرية التي بالكاد تغذي القليل من الخشخاش البري. أمضيت ساعتين في هذه الكنيسة، وتجولت فيها على الرغم من الإعصار الذي جعل الأجراس تهتز بشكل واضح. حملت قبعتي بين يديّ وقدمت احترامي بينما كانت زوابع الغبار تتجه نحو

عينيّ. ينفصل حجر بين الحين والآخر عن برج الكنيسة ويسقط بجانبه في المقبرة. هناك آلاف التفاصيل التي تستحق الرسم. التماثيل معقدة على نحو مميز وغريبة. مكونون بشكل عام من وحشين، أحدهما يحمل على أكتاف الآخر. سيظهرون من أبسيس لتمثيل الخطايا السبع المميتة. لا بد أن الشهوة، وهي فلاحه جميلة، مع تنورتها التحتية المرتفعة جدًا، قد صدمت الرهبان المساكين. يوجد على الأكثر ثلاث أو أربع كبائن في الحي، ولكان من الصعب نوعًا ما شرح كيف ظهرت هذه الكاتدرائية بدون وجود مدينة أو بلدة أو قرية بقربها، إن لم أكتشف في كنيسة صغيرة مغلقة بعناية بئرًا صغيرًا عميقًا جدًا. هذا بئر معجزة، متواضع وبسيط للغاية، ومثل بئر أي قرية أخرى، كما يجب أن يكون البئر المعجزة. أنتج البئر الكنيسة، كما ينتج المصباح زهرة الخزامى.

واصلت طريقي، وبعد السفر لثلاثة أميال جئت إلى قرية حيث كان السكان يحتفلون مع الموسيقى والرقص، مهرجان المكان. لاحظت لدى المغادرة، على قمة تل، منزلًا أبيض متوسط المظهر يعلوه تلسكوب، على شكل حشرة سوداء هائلة، تماثل نوتردام دو لوبين. كانت الشمس تغرب، الغسق يقترب، والسماء غائمة. نظرت من السهل إلى التلال التي كان نصفها مغطى بالبراح مثل معطف الأسقف. وعندما أدت رأسي رأيت كومة من الأوز يقطع بفرح".

قال السائق: "ستمطر". نظرت إلى الأعلى. كان نصف السماء الغربية مغطى بسحابة سوداء هائلة، وأصبحت الرياح عاصفة، وتساوت زهرة الشوكران مع الأرض، وبدأ أن الأشجار تنطق بصوت الرعب. انقضت لحظات قليلة وانهمر وابل المطر، كان كل شيء معتمًا باستثناء شعاع من الضوء الذي هرب من انحسار الشمس. ليس هناك من مخلوق يمكن سماعه أو رؤيته، لا أحد على الطريق ولا طير في الجو. هزت دقات الرعد الصاخبة السماء، وتناقضت مضات البرق اللامعة بشدة مع الظلام السائد. فرق هبوب رياح مطولة السحب باتجاه الشرق وأصبحت السماء صافية وهادئة.

لدى وصولنا إلى سانت مينهولد كانت النجوم تتألق براحة. هذه بلدة صغيرة خلابة، منازلها مبنية بطريقة عشوائية على قمة تل أخضر، وتعلوها أشجار شاهقة. رأيت شيئًا واحدًا يستحق الملاحظة في سانت مينهولد، وهو مطبخ فندق مئزر. قد يسمى مطبخ. أحد الجدران مغطى بالمقالي، والآخر بالأواني الفخارية، وفي الوسط مقابل

النافذة توجد شعلة رائعة ومدخنة ضخمة. تتدلى من السقف جميع أنواع السلال والمصابيح. يوجد بجانب المدخنة المقابس أسياخ الشوي وشماعات الأواني والغلايات والمقالي من جميع الأشكال والأحجام. يعكس الموقد اللامع الضوء في جميع أركان الغرفة، ويضفي مسحة وردية على الأواني الفخارية، فيتألق النحاس كجدار من المعدن، بينما يمتلئ السقف بظلال رائعة. لو كنت هوميروس أو رابليه لقلت: "هذا المطبخ هو العالم، والموقد شمسه".

إنه عالم بالفعل، جمهورية، يتكون من رجال ونساء وأطفال، الوصفاء الرجال والنساء، المستخدمين، الندل، أواني القلي فوق أطباق التسخين، محاطة بالقدر والغلايات. الأطفال يلعبون، القطط تموء والكلاب تنبح، ويشرف السيد على الجميع، mens agit at molem. في الزاوية توجد ساعة تحذر الركاب بشدة من أن الوقت دائماً على الجناح.

من بين الأشياء التي لا حصر لها التي تتدلى من السقف كان هناك شيء أثار اهتمامي أكثر من جميع الأشياء الأخرى، قفص صغير كان ينام فيه طائر كناري. بدا لي أن المخلوق المسكين الإشارة الأكثر إثارة للإعجاب على الإيمان. رغم قسوة الوكر والفرن والمطبخ المخيف الذي يمتلئ بالضجيج ليلاً ونهاراً، ينام الطائر. في الواقع يصدر الضجيج من حوله، يقسم الرجال، تنتشجر النسوة، يبكي الأطفال، تنبح الكلاب، تموء القطط، تدق الساعة، يتدفق الماء، تنفجر الزجاجات. تمر العربة تحت سقف محدب يصدر ضوضاء كالرعد، لكن جفن المقيم المغطى بالريش لا يتحرك.

يجب أن أصرح أن الناس عموماً يتحدثون بقسوة شديدة عن النزل، أنا نفسي كنت أول من يفعل ذلك في الغالب. يعد النزل بأخذ كل شيء في الاعتبار أمراً جيداً للغاية، وغالباً ما يسعدنا العثور عليه. بجانب ذلك، لاحظت في كثير من الأحيان أنه يوجد في جميع النزل تقريباً مديرة فندق مقبولة، أما بالنسبة للمضيف، فلندعه للمسافرين المشاغبين، ولتعطني المضيضة. الأول كائن ذو طبيعة كئيبة بغیضة، والثاني بهيجة وودودة. امرأة مسكينة، أحياناً تكون عجوزاً، وأحياناً حالتها الصحية سيئة، وغالباً ما تكون ضخمة جداً. هي تأتي وتذهب، هي هنا وهناك، هذه اللحظة في أعقاب المستخدمين، في التالية تلاحق الكلاب، تجامل المسافرين، وتعبس لرئيس

المستخدمين، تبتسم لأحدهم، توبخ الآخر، تضرم النار. تأخذ هذا وترسل ذاك. هي في الواقع روح ذلك الجسد العظيم الذي يُدعى نزل. لا يلائم المضيف شيئاً سوى الشرب في الزاوية مع الحوذي. المضيضة اللطيفة للافيل دو ميتز في سانت مينهولد، شابة تبلغ من العمر ستة عشر عاماً، نشطة بإفراط، وتدير شؤونها المنزلية بأكبر قدر من الانتظام والدقة. المضيف، والدها، استثناء للنموذج العام لأصحاب النزل، كونه رجلاً ذكياً للغاية وجدير، في كل شيء، إنه نزل ممتاز.

غادرت سانت مينهولد وواصلت طريقي إلى كليرمونت. الطريق بين هاتين المدينتين ساحر. على كلا الجانبين غابة من الأشجار، تتلألأ أوراقها الخضراء في الشمس، وتلقي بظلالها المنفصلة وغير المنتظمة على الطريق السريع. للقرى في مظهرها شيء سويسري وألماني، منازل حجرية بيضاء، ذات أسقف كبيرة من الأرذواز تبرز ثلاثة أو أربعة أقدام من الجدار. شعرت أنني أجاور الجبال. في الواقع أردن هنا. قبل وصولنا إلى كليرمونت مررنا عبر واد رائع، حيث يلتقي مارن وميوز. يقع الطريق بين تلين، وهو شديد الانحدار لدرجة أننا لا نرى شيئاً أمامنا سوى هاوية من أوراق الشجر.

كليرمونت قرية جميلة للغاية، ترأسها كنيسة، وتحيط بها الخضرة. ثم ينعطف الطريق ويظهر الوادي بأكمله. محاط بدائرة شاسعة من التلال، في وسطها قرية جميلة، إيطالية تقريباً، الأسطح منبسطة جداً. إلى اليمين واليسار توجد عدة قرى أخرى تطفو على مرتفعات خشبية، بينما ترى أبراج الأجراس من خلال الضباب، وهي علامة على أن القرى الأخرى مخبأة في ثنايا الوادي كما في رداء مخملي أخضر. وقطعان كبيرة من مراعي الثيران في المروج الواسعة. من خلال كل ذلك يتموج نهر صغير جميل بفرح. قضيت ساعة في عبور هذا الوادي. وطوال الوقت كان التلغراف في النهاية يرسم ثلاث علامات.

بينما كانت الآلة تفعل ذلك، كانت الأشجار تخشخش، والماشية تنخفض وتنمو، والشمس تشع على كامل السماء، وكنت أقارن الإنسان بالله.

كليرمونت قرية جميلة تقع فوق بحر من الخضرة، وكنيستها على قممتها، تماماً مثل تريبورت فوق بحر من الأمواج. بالانعطاف ناحية اليسار من وسط كليرمونت، يصل

المسافر في غضون ساعتين إلى فارين، عبر ريف جميل من السهول والتلال والجدول. كان هذا هو الطريق الساحر الذي تبعه لويس السادس عشر نحو الخراب. أجد أنني استفدت من كلمة شامبينوا، التي وباستحسان يضرب بها المثل، وهي مفارقة إلى حد ما، يجب ألا تخطئ في المعنى الذي أضفته إليها. ربما يكون المثل مألوفاً أكثر من كونه قابلاً للتطبيق. يتحدث عن شامبين كما تحدثت مدام لا سابلير عن لافونتين: "كان رجلاً عبقرياً غيبياً"، وهو تعبير ينطبق على عبقرى شامبين. مع ذلك، هذا لم يمنع لافونتين من أن يكون شاعراً رائعاً، ولم يمنع شامبين من أن تكون بلداً نبيلًا وشهيرًا. ربما تحدث فيرجيل عن ذلك كما تحدث عن إيطاليا:

" Alma parens frugum, Alma virum."

شامبين مسقط رأس وبلد أميوت، الزميل الذي تناول موضوع بلوتارخ، كما فعل لافونتين مع إيسوب، ومع تيبوت الرابع، الذي لم يكن يتباهى بأكثر من كونه والد القديس لويس، ومع شارلييه دي جيرسون، الذي كان مستشاراً لجامعة باريس، ومع أماديس، وجامين، وكولبير، وديدرو، ومع اثنين من الرسامين، لانتاري وفالنتين، ومع اثنين من النحاتين، جيراردون وبوشاردون، ومع اثنين من المؤرخين، فلودوارد ومابيلون، ومع اثنين من الكرادلة المليئين بالعبقرية، هنري دي لورين وبول دي جوندي، ومع اثنين من الباباوات كاملي الفضيلة، مارتن الرابع وأوربان الرابع، مع الملك كامل المجد فيليب أوغست.

الأشخاص الذين يتمسكون بالأمثال ويترجمون سيزان بواسطة *sexdecim asini*، كما ترجموا منذ ثلاثين عامًا فونتانيس بواسطة *Faciunt asinos*، سيكونون سعداء بمعرفة أن شامبين قد أنجبت ريتشليت، مؤلف "قاموس القوافي"، وبوينسينت، الرجل الأكثر حيرة في العصر الذي حير فيه فولتير العالم. حسنًا إذن، أنت، والذين يحبون التناغم، والذين يؤمنون بأن شخصية وعمل وعقل الرجل هي نتاج طبيعي لبلده، معتبرين أنه من المناسب أن يكون بونابرت كورسيكيًا، ومازارين إيطاليًا، وهنري الرابع جاسكونيًا. هل تستمع إلى هذا؟ كان ميرابو من مواليد شامبين تقريبًا، ودانتون كذلك تمامًا. ما النتيجة التي توصلت إليها من ذلك؟ يا لطيف السموات، لماذا لا يكون دانتون شمبانيًا؟ ألم يكن فوجيلاس سافويارد؟.

كان فابيرت، ذلك المشير الفرنسي اللامع، من مواطني شامبين أيضاً. كان ابن بائع كتب ورجلاً لم يرغب أبداً في أن يرتفع عالياً أو يغرق بعمق. روح نقية جادة ظلت بعناية ضمن حدود النجاح الذي تحقق له. حاول القدر تباعاً - أولاً في رتبته ثم في تواضعه - كان دائماً على نفس الحال في حضرة الإهانات التي واجهها كما في حضرة التكريم عديم الفائدة في متناوله، لم يرفض الإذلال عن كبرياء ولا الأوسمة عن شعور بعدم الاستحقاق، لكن رفض كليهما من طهارة. رفض أن يكون جاسوس مازارين، وقبول الشريط الأزرق من يد لويس الرابع عشر. قال للويس الرابع عشر: "أنا جندي، أنا لست جنتلمان". قال لمازارين: أنا ذراع، لست عيناً".

كانت شامبين مقاطعة قوية ونشطة. وكان كونت شامبين هو رب فيكونتي بري، والذي كان هو نفسه من بري، يتحدث بشكل صحيح القليل من الشمبانية، كون بلجيكا هي فرنسا مصغرة. كان كونت شامبين نظير الفرنسي، وحمل راية الزنابق عند التتويج. دعا إلى عقد ولاياته الخاصة بالطريقة الملكية من خلال سبع كونتات مؤهلين كأقران من شامبين. كانوا من كونتات جوينجي، ريثيل، برين، روسي، بريين، غراندبري، بار سيسين. لا توجد بلدة أو قرية في شامبين ليس لها أصل مثير للاهتمام من نوع أو آخر.

تختلط الكميونات الكبرى بتاريخنا. الصغرى دائماً ما تكون مسرحاً لبعض المغامرات. أنقذ تروا من أتيليا بواسطة القديس لوب، ورأى في عام 878 ما لم تراه باريس إلا عام 1804، وهو بابا يتوج إمبراطوراً في فرنسا، جون الثامن يتوج لويس لو بيج. في اتيني، أقام بيبين محكمته العليا للعدل، مما جعل غوفر، دوق أكيتين، يرتعد.

شامبين مقاطعة قوية، وليس بها بلدة أو قرية لا تحوي شيئاً رائعاً. ريمس التي تمتلك كاتدرائية الكاتدرائيات، هي المكان الذي تم فيه تعمد كلوفيس. جرت المقابلة بين جونتران، ملك بوجوندي، و شيلدبرت، ملك أوستراسي، في أنديلوت. لجأ هينمار إلى إبيرناي، أبيلارد إلى بروفيم، هلواز إلى باراكليت. انتصر جورديان في لانجر، وفي العصور الوسطى دمر مواطنوها القلاع السبع الهائلة: تشاجني، سانت بروينج، نيوي كوتون، كوبونز، بوج، هيومز وبيلي. تم التحالف في جوينفيل عام 1584. كان هنري الرابع محمياً في شالون عام 1591. قتل أمير أورانج في سانت ديزييه. سيزان هو مكان الأسلحة القديم لدوقات بوجوني. تأسست سيجني لابي في أراضي

اللورد شاتيلون من قبل القديس برنارد، الذي وعد السينيور بنفس عدد الأقدام من الأرض التي منحه إياها، أقدامًا في السماء. موزون هي إقطاعية رئيس دير القديس هوبرت، الذي يرسل ستة كلاب متعقبة، والعدد نفسه من الطيور الجارحة كل عام إلى ملك فرنسا.

تحتفظ شامبين بآثار ملوكنا القدامى، تشارلز المتواضع من أجل سيريري في أتينى. رفع القديس لويس ولويس الرابع عشر، الملك المتدين والملك العظيم، السلاح أولاً في شامبين، الأول في عام 1228 عندما رفع حصن تروا، والثاني في عام 1652 في سانت مينهولد.

سجلات شامبين القديمة ليست أقل شهرة من التاريخ الحديث. البلد مليء بالهدايا التذكارية الفاتنة، ميروفي وفرانس، أكتيوس وإيومان، ثيودوريك والقوط الغربيين، جبل جولي وضريح جوفينوس. العصور القديمة هنا تعيش، تتحدث وتهتف للمسافر: "قف أيها المسافر".

منذ أيام الرومان وحتى يومنا هذا كانت بلدة شامبين، التي كانت محاطة في بعض الأحيان من قبل آلان سوييس والمخربين والألمان، قد تم حرقها تمامًا بدلاً عن تسليمها للعدو. بنيت على الصخور، وقد اتخذوا "Donec moveantur" شعاراً لهم. في عام 451 تم تدمير الهونيين في سهول شامبين. في عام 1814، لو أراد الله ذلك، لكان الروس واجهوا المصير نفسه أيضاً.

لا تتحدث أبداً عن هذه المقاطعة إلا باحترام. كم من أبنائها ضحوا من أجل فرنسا! في عام 1813 كان عدد سكان منطقة واحدة من مارن يتألف من 311000. في عام 1830 كان لديها 309000 فقط، ما يدل على أن خمسة عشر عاماً من السلام لم تعوض الخسارة.

لكن، للتوضيح: عندما يطبق أي شخص كلمة وحش على شامبين، فهو يقوم بتغيير المعنى. إنها تدل على السذاجة والبساطة والوقاحة والبدائية والحاجة للشك فيها. قد يكون الوحش أسداً أو نسرًا. هذا ما كانت عليه شامبين في عام 1814.

الفصل الرابع

من فيلير كوتيري وحتى الحدود

آثار السفر. الحركة التراجعية. انعكاس. سر النجوم. النقش "I.C" الكاتدرائية حيث توج الملك بيبين. لقاء السجين الحزين. ريمس. كنيسة ميزيير. آثار القنبلة. سيدان ومحتوياته. - أحداث ولادة توريني. محادثة السير جون فالستاف ونصفه الأفضل.

صنعت بعض الطرق هذه المرة. أكتب إليك اليوم يا صديقي العزيز من جيفيت، المدينة الصغيرة القديمة التي تشرفت بتزويد لويس الثامن عشر بأمره الأخير، وتوريته الأخيرة: "القديس دينيس، جيفيت، (أنا ذاهب)".

وصلت إلى هنا في الرابعة صباحًا، مضروبًا حتى الموت نتيجة الارتجاج المخيف للعربة المسماة الديلجنس. ألقيت بنفسي على سريري مرتديًا ملابس، ونمت لمدة ساعتين. بعد ذلك، بعد أن انقضى النهار نهضت لأكتب إليك. عندما فتحت نافذتي للاستمتاع بالمنظر لاحظت زاوية جدار أبيض، ومزربًا خشبيًا قديمًا مختنقًا بالطحالب، وعجلة عربة قديمة تنكئ على الحائط. بالنسبة لغرفتي فهي قاعة كبيرة مؤثثة من أربعة أسرة واسعة مع مدخنة خشبية ضخمة تعلوها مرآة صغيرة بائسة، وعلى الموقد حزمة عصي صغيرة جدًا وبجانبتها مكنسة، وبالقرب منها مثبت حذاء من طراز ما قبل الطوفان، فتحتة تنافس التواءات نهر ميوز. إن تجرأت على وضع قدمك فيه ستأكد أنك لن تخرجها مرة أخرى. ربما آخرون، مثلي، كانوا ليعرجوا حول المنزل مع مثبت الحذاء على كعوبهم وهم يصرخون بصوت عالٍ طلباً للمساعدة. كي أكون عادلاً يجب أن أجري بعض التصحيح في ما يتعلق بالمنظر. منذ لحظة سمعت قرقرة دجاجات. انحنيت من النافذة ورأيت حديقة خبازي صغيرة ساحرة

ومزهرة، تحتي تمامًا. تقف على لوح خشبي ومدعومة بقطعتين قديمتين من المواقد الفخارية، معطية نفسها كل أجواء شجرة الورد.

جعلتني حادثة تافهة لا تستحق أن تُحكى، أن أعود من فارين إلى فيلير كوتيري، وقبل أول أمس ومن أجل تعويض الوقت الضائع، أخذت ديلجنس حتى سواسون. لم يكن هناك راكب سواي، وهو ظرف لم يكن مقلًا بأي حال من الأحوال، كونه منحني فرصة لقلب صفحات بعض المؤلفين المفضلين لدي بهدوء.

لدى اقترابي من سواسون كان النهار يتلاشى بسرعة، والليل يلقي بجانبه الكئيب على ذلك الوادي الجميل حيث ينحدر الطريق تدريجياً بعد مروره على قرية لا فيلي، ويؤدي إلى كاتدرائية سان جان دي فيجن. رغم الضباب الذي انتشر حولنا رأيت جدران واسقف منازل سواسون، مع نصف قمر يحدق من خلفها. تراجلت، وبقلب يعترف تمامًا بسمو الطبيعة، حددت في المشهد المهيّب. نقّ جندب في الحقل المجاور. الأشجار على جانب الطريق تخشخش بهدوء. رأيت بعين العقل السلام يحوم الآن فوق السهل وحيداً وهادئاً، حيث غزا قيصر، ومارس كلوفيس سلطته، وسقط نابليون تقريباً. يرينا السهل أنّ الرجال - حتى قيصر وكلوفيس ونابليون - ليسوا سوى ظلال عابرة، وأنّ الحرب خيال ينتهي معهم. بينما الله، والطبيعة التي تأتي من الله، والسلام الذي يأتي من الطبيعة، أشياء أبدية.

عقدت العزم على أخذ عربة سيدان التي لا تصل إلى سواسون حتى منتصف الليل، وسمحت للديلجنس بالتحرك مع علمي أنّ أمامي متسعاً من الوقت. الطريق التي فصلتني عن سواسون كانت مجرد نزهة ساحرة. عندما صرت على مسافة قصيرة من البلدة جلست بالقرب من منزل صغير شديد الجمال، يخرج منه ضوء خافت مصدره الحداد وهو ينفخ على كيره. نظرت إلى الأعلى، كانت السماء هادئة وجميلة، وكانت الكواكب - المشتري والمريخ وزحل - تتألق في الجنوب الشرقي. الأول، الذي كان مساره معقداً إلى حد ما لمدة ثلاثة أشهر يسير بين الاثنين الآخرين، ويشكل خطاً مستقيماً تماماً.

ناحية الشرق كان المريخ نارياً في مظهره، مقلداً البرج النجمي من خلال نوع من الاشتعال الشرس. في الأعلى قليلاً، لامعاً بهدوء مع مظهر أبيض ومسال، كان ذلك الكوكب الوحشي، العالم المخيف والغامض الذي نسميه زحل. على الجانب الآخر، عند طرف المشهد، عكست منارة رائعة ضوءها على التلال الكئيبة التي تفصل بين نويون وسواسيني. عندما كنت أسأل نفسي عن فائدة مثل هذا الضوء في هذه السهول الهائلة، رأيتَه يخرج من حدود التلال ويتجول عبر الضباب ويتصاعد بالقرب من القمة. كانت تلك المنارة هي

الدبران، الشمس ذات الألوان الثلاثة، النجم الأرجواني الهائل، الفضي، والنجمة الزرقاء التي ترتفع بشكل مهيب في ضياع الشفق.

يا له من سر هناك لدى هذه النجوم. الشعري، والمفكر والتخيلي، بدورهم، تأملوا ودرسوا واعجبوا بها. وبعضهم، بحيرة مثل زرادشت، آخرون مثل فيثاغورس، برهبة لا توصف. سمى سيث النجوم كما فعل آدم للحيوانات. الكلدان، جينيثلياك، عزرا، زربابل، أورفيوس، هومر، فيريسيدي، زينوفون، هيكاتسيوس، هيرودوت وثيوسيديدز - كل عيون الأرض مغلقة لفترة طويلة، محرومة من الضوء لفترة طويلة - تم إصلاحها من عصر إلى آخر في تلك الأجرام السماوية التي تكون مفتوحة دائماً، ومضاءة دائماً، وحية دائماً. نفس الكواكب، نفس النجوم، التي تشد انتباهنا الليلة، حلق بها كل هؤلاء الرجال. تحدث أيوب عن أوريون والثريا. أصغى أفلاطون وسمع بوضوح الموسيقى الغامضة للفلكة. اعتقد بليني أن الشمس هي الله، وأن البقع على القمر هي زفير الأرض. أطلق شعراء تارتاري على القطب سينيستول، ويعني مسماراً حديدياً. يقول يوكيليس: "ربما سمي الأسد يوماً ما بالقرد أيضاً". لن ينسب باكوفوس الفضل إلى المنجمين، في ظل فكرة أنهم سيكونون مساويين لكوكب المشتري: -

"إن توقع أي شخص ما سيحدث، فسيستعدوا لكوكب المشتري"

" Nam si qui, quae ventura sunt, prevident iEq parent Jovi."

سأل فافورينوس نفسه هذا السؤال: "إن كان جميع البشر والطبيعة يحيون ويموتون، هل السماء والنجوم السبب؟". أولوس جيليوس، وهو يبحر نحو الزهو، جلس طوال الليل على مؤخرة السفينة يتأمل النجوم. "كان الليل مثمراً، والبحر معتدلاً، والسماء صافية ومشمسة؛ لذلك جلسنا على المؤخرة في ذات الوقت، نتفكر حول النجوم الساطعة". هوراس نفسه ذلك الفيلسوف العملي، فولتير عصر أغسطس، الشاعر الأعظم، أصدق، من فولتير لويس الخامس عشر. ارتجف عندما نظر إلى النجوم، وكتب هذه السطور الرهيبة: -

"هذه الشمس ونجومها الثابتة والمغادرة، هي الفصول التي تنظر إلى اللحظة التي لا يوجد فيها مسحة مضيئة".

بالنسبة لي، لا أخاف النجوم، أحبها. مع ذلك لم أفكر أبداً بدون قناعة معينة أن الوضع الطبيعي للسماء هو الليل، وما نسميه "النهار" نابع من ظهور نور ساطع.

لا يمكننا النظر إلى الاتساع دائماً. تماثل النشوة الصلاة. فالأخيرة تتنفس العزاء، أما الأولى فتنهك وتضعف. عندما أنزلت عينيَّ عن أعلى، ألقيتهما على الحائط المواجه لي. وحتى هناك، منح الموضوع حقه من التأمل والتفكير. كانت عليه آثار لنقشٍ قديمٍ محيت بالكامل تقريباً. لم يكن بإمكانني سوى أن ألاحظ I.C. تشير بلا شك إلى باغان أو روما المسيحية، إلى مدينة القوة، أو مدينة الإيمان. بقيت وعيني مثبتة على الحجر الذي بدا حياً، ضائعاً في فرضيات عبثية. عندما عرف الناس I. C. لأول مرة، حكموا العالم. في المرة الثانية أناروه: يوليوس قيصر ويسوع المسيح.

لا بد أن دانتني عندما وضع بروتوس القاتل ويهوذا الخائن معاً في أقصى طرف الجحيم، وجعل الشيطان يلتهمهما، كان قد تأثر بفكرة مماثلة لتلك التي استحوذت على انتباهي الكامل. أضيفت ثلاث مدن الآن إلى سواسون - نوفيدونم الغال، وأوغستا سويسونيوم الرومان، وسواسون القديمة لكلوفيس وتشارلز البسيط، ودوق ماين. لم يبقَ شيء من نوفيدونوم التي أرعبت مسيرة قيصر الخاطفة. "سواسن"، كما تقول التعليقات،*

' legatos ad Caesarem de Celeritate Romanorum permoti deditione mittunt'. كل ما تبقى من سوسونيوم بعض الآثار القبيحة، من بين أمور أخرى المعبد القديم الذي تحول في العصور الوسطى إلى كنيسة القديس بطرس. سواسون القديمة أكثر إثارة للاهتمام. يوجد بها سان جان دي فيجن بقلعتها القديمة وكاتدرائيتها التي توج فيها بيبين عام 752. لم أتمكن من تتبع أي بقايا لتحصينات دوق ماين أو معرفة ما إذا كانت التحصينات هي التي دفعت الإمبراطور إلى الانتباه، عندما لاحظ في عام 1814 بعض بقايا الحفريات في الجدار، "تم بناء جدران سواسون من نفس الحجر مثل جدران القديس يوحنا عكا". ملاحظة مثيرة للفضول، النظر في كيف صنع ومتى وبواسطة من. كان الظلام شديداً عندما دخلت مدينة سواسون. لذا بدلاً من البحث عن نوفيدونوم أو سوسينيم، متعت نفسي بعشاء جيد. بعد أن استعدت قوتي، خرجت وتجولت حول الصورة الخيالية العملاقة لسان جان دي فيجن. كانت الساعة الثانية عشرة قبل عودتي إلى النزل، عندما ساد الصمت والظلام. وفجأة اندلع ضجيج في أذني، وصول العربة التي توقفت على بعد خطوات قليلة من النزل. لم يكن هناك سوى مكان واحد شاغر، أخذته، وكنت على وشك تثبيت نفسي عندما اندلعت ضجة غريبة - صرخات نسوة، وضجيج عجلات، ودوس خيول في شارع مجاور ضيق ومظلم. ورغم أن السائق قال إنه سيغادر في غضون خمس دقائق، إلا أنني أسرعت نحو المكان. رأيت لدى دخولي الشارع الصغير، عند قاعدة جدار

ضخم كان له مظهر السجون البغيض والمخيف، بابًا منخفضًا مقوسًا مفتوحًا. على بعد خطوات قليلة تقف العرببة كئيبة المظهر بين اثنين من رجال الدرك يمتطيان خيلاً، ونصفها مختبئ في الظلمة. وبالقرب من الباب، يكافح أربعة أو خمسة رجال محاولين إجبار امرأة كانت تصرخ بخوف على الصعود إلى العرببة. ألقى الضوء الخافت لفانوس يحمله رجل عجوز بريقاً حزيناً على المشهد. كانت الأنثى، وهي امرأة ريفية قوية تبلغ من العمر حوالي ثلاثين عاماً، تكافح بشدة ضد الرجال، تضرب وتخدش وتصرخ. وعندما أضاء المصباح الملامح البرية والشعر الأشعث للمخلوقة المسكينة، كشف بحزن صورة مدهشة لليأس. انكمشت أخيراً على أحد قضبان الباب الحديدية، لكن الرجال بجهد عنيف أجبروها على الخروج منها وحملوها إلى العرببة. هذه المركبة، التي كان يضيئها الفانوس آنذاك، لم تكن بها نوافذ، وقد تم حفر ثقب صغير في المقدمة لتتوب عنها. كان هناك باب في الجزء الخلفي مغلقاً ومحروساً ببراعي حديدية كبيرة. لدى فتحها كشف الجزء الداخلي من العرببة عن نوع من العلب، بدون إضاءة وبدون هواء تقريباً. تم تقسيمه إلى مقصورتين مستطيلتين بواسطة لوح سميك، ولا تتصل إحداها بالأخرى، والباب يغلق كليهما في ذات الوقت. الزنزانة ناحية اليسار فارغة، أما اليمنى فكانت مشغولة. مقرصاً في الزاوية مثل وحش بري، كان هناك رجل. إن كان هناك نوعٌ من الأشباح ذو وجه عريض، ورأس مسطحة، وهيكَل ضخم، وشعر أشيب، وأرجل قصيرة، ويرتدي زوجاً من السراويل القديمة الممزقة، ومعطفٍ رثٍ، لربما ندعوه واحداً منهم. كانت رجلا الرجل الشقي مقيدتين ببعضها البعض، على قدمه اليمنى حذاء، بينما يسراه المغطاة بكتان ملطخ بالدماء مكشوفة جزئياً. لم ينتبه هذا المخلوق البشع على النظر، الذي كان يأكل قطعة خبز أسود، لما كان يدور حوله. ولم ينظر إلى الأعلى ليرى الرفيقة البائسة التي أُتي بها. كانت المرأة المسكينة لا تزال تكافح ضد الرجال الذين كانوا يحاولون دفعها إلى الزنزانة الفارغة، وكانت تصرخ: "لا، لا يجب عليّ، أبداً، اقتلني الآن، أبداً".

في إحدى تشنجاتها، ألقت عينيها على السيارة، وعندما انتبهت للسجين، توقفت فجأة عن البكاء وارتجفت ساقاها واهتز جسدها كله، وصرخت بصوت مختنق، لكن مع تعبير عن الألم الذي لا يجب أن أنساه مطلقاً: "أوه، هذا الرجل".

نظر إليها السجين بنحو مرتبك لكنه شرس. لم يعد بإمكانه المقاومة أكثر. كان من الواضح أنها ارتكبت بعض الجرائم الخطيرة، ربما السرقة، وربما أسوأ. كان الدرك ينقلونها من

مكان إلى آخر في واحدة من تلك المركبات البغيضة التي أطلق عليها صبية باريس، مجازاً، سلال السلطة. كانت امرأة واعتقدت أن من واجبي التدخل.

خاطبت الرقيب لكنه لم يولني اهتماماً. وتقدم نحوي رجل درك هام، مغترّاً بسلطته المحدودة طالب بجواز سفري. لسوء الحظ كنت قد أغلقت للتو على هذا الشيء بالغ الأهمية في حقيبة عربتي. وبينما كنت أقدم التفسيرات، بذل السجانون جهداً قوياً وأدخلوا المرأة، نصف ميتة في العربة وأغلقوا الباب ودفعوا البراغي. وعندما استدرت كان جميعهم قد غادروا، ولم أسمع شيئاً سوى قعقة العجلات ودوس الموكب.

بعدها بدقائق قليلة، كنت أجلس بارتياح في عربة تجرها أربعة خيول ممتازة. فكرت في المرأة البائسة وقارنت بقلب مؤلم حالتي مع حالتها. في خضم هذه الأفكار نمت. عندما استيقظت كان الصباح قد طلع. كنا في واد جميل، وادي برين سور فيسل. فينوس كانت تتألق فوق رؤوسنا، وأشعتها تُلقي بصفاء وحزن لا يفسر على الحقول والغابات. عين سماوية فتحت على هذا الريف النائم الجميل.

تجتاز العربة ريمس بسرعة شديدة دون أي احترام للكاتدرائية. يمكننا بالكاد أن نرى فوق جملونات شارع ضيق مئذنتين أو ثلاثاً، وشعار تشارلز السابع، و "سهم الدعاء" الهزيل ينطلق من أبسيس.

لا يوجد شيء من ريمس إلى ريثيل. شامبين بوليوز الرديئة التي تُبنت أفعالها الذهبية بحلول شهر يوليو. سهول صفراء عارية كبيرة، ترتجف على قممها تدفقات ناعمة وهائلة من الأرض، مثل رغوة نباتية، وعلى حافة المنظر الطبيعي من حين لآخر بعض الحشرات البائسة. طاحونة كسولة تدور ببطء كما لو أن شمس الظهيرة شديدة الإفراط بالنسبة لها. وعلى الطريق الجانبي يجفف الخزاف ألواحاً خشبية دعمت أمام بابها العشرات من أواني الزهور. تغوص ريثيل برشاقة من أعلى تل نزولاً نحو نهر أيسن الذي تتقاطع ذراعه مع المدينة في مكانين أو ثلاثة. مع ذلك، لا يوجد شيء يوحي بأنها المقر الأميري القديم لأحد أقران الكونت السبعة من شامبين. الشوارع كشوارع بعض البلديات الكبيرة ذاتية الحكم أكثر منها شوارع مدينة. للكنيسة مظهر متوسط إلى حد ما.

يتسلق المسار من ريثيل إلى ميزيير تلك الخطوات الشاسعة التي تربط هضبة أرغون مع سهل روكروي الأعلى. تضيفي الأسطح الإردوازية الكبيرة، والواجهات البيضاء، والبروزات الخشبية التي تحمي منازل الشمال من المطر، مظهرًا غريبًا على القرية. تكسر بين الحين والآخر مرتفعات فوسيلس خط الأفق باتجاه الجنوب الشرقي، لكن هناك القليل

من الغابات، أو لا توجد. بالكاد توجد بعض المجموعات من الأشجار على سفوح التلال البعيدة. أزال ابن زنا الحضارة ذلك الغابات، وأضاع، للأسف، العرين القديم للخنزير البري في آردين.

بحثت بمجرد مجيئي إلى مزيير عن بعض الأبراج القديمة نصف المدمرة لقلعة هيليبارد السكسونية. لم أجد سوى خطوط متعرجة شديدة القسوة لقلعة فوبان. لاحظت من ناحية أخرى أثناء فحص التصاريح في نقاط مختلفة بقايا - جيدة إلى حد ما على الرغم من تفكيكها- للجدار الذي هاجمه تشارلز الخامس ودافع عنه بايارد. تشتهر كنيسة مزيير إلى حد ما بزجاجها الملون. استفدت من النصف ساعة التي تمنحها العربية للمسافرين لتناول وجبة الإفطار في زيارتها. لا بد أنَّ النوافذ كانت شديدة الجمال بالفعل. لا تزال بعض شظاياها متبقية على نوافذ كبيرة من الزجاج الأبيض. لكن الشيء الأكثر إثارة للاهتمام الكنيسة نفسها، والتي تعود إلى القرن الخامس عشر. لها شرفة ساحرة على الجانب الجنوبي. شوه وبُيض اثنان من النقوش البارزة من زمن تشارلز الثامن، ويقعان فوق عمودين على يمين ويسار موقع الجوقة. غطيت الكنيسة بأكملها باللون الأصفر، واختيرت الحبوب وأحجار أساس السقف من ألوان مختلفة. كل هذا شديد الغباء وبالغ القبح. رأيت في الجانب الشمالي نقشاً على الحائط يشهد على تعرض مزيير لهجوم وحشي وقصف من قبل البروسيين في عام 1815. وعليه هذه الكلمات: "Lector leva oculos ad fornicem et vide quoddam divinae manus indicium".

رفعت عيني ورأيت شقاً كبيراً في القبو أعلى رأسي، بداخله قنبلة هائلة، أوقفتها العارضات الخشبية والبناء بعدما اخترقت سقف الكنيسة، كما لو كان في الأمر معجزة، قبل أن تسقط على رصيف الشارع. وبعد مرور خمسة وعشرين عاماً لا تزال باقية في مكانها. تنتج تلك القنبلة، وذلك الصدع الهائل الذي يعلو رأس الزائر، تأثيراً غريباً للغاية، والذي ضوعف عند التفكير في أنَّ أول قنبلة تم استخدامها في الحرب كانت في مزيير في عام 1521. على الجانب الآخر من الكنيسة نقش آخر يخبرنا أنَّ زفاف تشارلز التاسع وإليزابيث النمسا تم الاحتفال به بسعادة في هذه الكنيسة، في 17 نوفمبر 1570، قبل عامين من القديس بارثولوميو. ترجع البوابة الكبرى لتلك الحقبة، لذا كانت نبيلة في مظهرها وذوقها الرفيع.

أما بالنسبة لمزيير، فهناك بعض الأشجار بالغة العلو على أسوارها. الشوارع نظيفة ورائحة مقارنة بضجرتها. لا يوجد شيء في المدينة يذكرنا بهيلبارد وجارينوس المؤسسين، بلنازار الذي نهبها، أو الكونت هوغو الذي أضفى عليها النبالة، أو فولكيس وأدالبيرون اللذين حاصروها.

اقترب الوقت من الظهيرة عندما وصلت إلى سيدان. وبدلاً عن رؤية الآثار والمباني، رأيت ما تحتويه المدينة: نساء جميلات، ودرك وسيمين، ومدفع، وأشجار ومروج على طول نهر ميوز. حاولت العثور على بعض بقايا السيد دي توريني، لكنني لم أنجح. تم هدم الجناح الذي ولد فيه، لكن الحجر الأسود بالنقش التالي يؤمن مكانه:

"هنا ولد توريني، في الثاني من سبتمبر 1611".

صدمني التاريخ المكتوب بأحرف ذهبية بارزة، وأعاد إلى ذهني تلك الفترة المليئة بالأحداث. في عام 1611 تقاعد سولي، واغتال هنري الرابع في العام السابق لويس الثالث عشر، الذي كان يجب أن يموت كما مات والده في 14 مايو، كان حينها في العاشرة من عمره. كان ريشيليو في السادسة والعشرين. أطلق أهل روان الطيبون على رجل بتيت ببير، وأطلق عليه الكون فيما بعد Le Grand Corneille الغراب الكبير. كان شكسبير وسرفانتس على قيد الحياة، وكذلك برانثوم وببير ماتيو. لفظ في عام 1611 بابيريان ماسون وجان بوسدي أنفاسهما الأخيرة. خلف غوستاف أدولف الملك صاحب الرؤية تشارلز السويد التاسع. طرد فيليب الثالث، رغم نصيحة دوق أوسونا، المغاربة من إسبانيا. واكتشف عالم الفلك الألماني جان فابريسيوس البقع على الشمس. هذه هي الأحداث التي كانت تحدث في العالم عندما ولد توريني. سيدان لم تكن وصياً جديراً لذكراه. وهدم المنزل الذي ولد فيه ودمر قلعته.

لم أملك الشجاعة للذهاب إلى بازيل ومعرفة ما إن كان بعض الفلاحين المالكين قد هدموا طريق الأشجار التي زرعها الجندي العظيم أم لا. مع ذلك، يوجد تمثال برونزي متوسط المستوى لتوريني في الساحة الرئيسية في سيدان، لكن لم أجد فيه عزاء عن البقية. ليس التمثال سوى هالة. الغرفة التي ولد فيها، والقلعة التي عاش بها، والأشجار التي زرعها، كانت تذكارات.

ولا توجد أي تذكارات لوليام دي لا مارك، ذلك السلف الكريه لتوريني في سجلات سيدان. ولهذا هناك سبب أفضل. إنه لأمر رائع ويستحق التسجيل، أنه في وقت معين من خلال الارتقاء الطبيعي للأشياء والأفكار أصبحت مدينة الخنزير البري في أردن إنسانية بما يكفي لتلد توريني.

بعد وجبة إفطار جيدة في فندق ممتاز (كروا دور)، ما من شيء يبقيني في سيدان. قررت العودة إلى مزيير وأخذ المركبة من هناك إلى جيفيت. تبعد خمسة فراسخ. لكن بعدها، اجتزت هذه الفراسخ الخمسة رائعة الجمال سيرًا على الأقدام، يتبعني فتى دكن حافي القدمين يمشى بمرح وثقل حاملاً حقيبتني. يوازي المسار تقريباً نهر ميوز. على بعد نصف فرسخ من سيدان وصلت إلى دونشيري بجسرها الخشبي القديم وأشجارها الجميلة. بعدها قرى باسمة، أكواخ جميلة أغرقت تحت كتل من الخضرة، ومروج واسعة حيث كانت قطعان من الثيران تتغذى تحت الشمس. يتلاشى الميوز الآن، ثم يظهر نفسه مرة أخرى. كان الطقس رائعاً ببساطة. شعرت في منتصف الطريق بالحر الشديد والعطش الشديد، بحثت حولي في جميع الجوانب عن منزل قد أتناول فيه مشروباً. رأيت في النهاية واحداً، ركضت تجاهه آملاً أن تكون حانة، وقرأت هذه اللافتة فوق الباب: "بيرنييه حنا، بائع الذرة ولحم الخنزير". على مقعد بجانب الباب يجلس هناك رجل مصاب بتضخم الغدة. هناك العديد من هؤلاء التعساء في هذا البلد. مع ذلك، دخلت بشجاعة إلى مطعم لحوم الخنزير والذرة وشربت كوب الماء الذي جلبه لي صاحب الغدة المتضخمة.

وصلت إلى مزيير في السادسة مساءً. في السابعة غادرت إلى جيفيت. انحشرت في عربة منخفضة ضيقة كئيبة بين رجل بدين وامراه بدينة، زوج وزوجة، قالا أشياء لطيفة لبعضهما البعض عبري. دعت السيدة زوجها كلقطتي (كلب وقطة) المسكين. لا أعرف ما إذا كانت تقصد أن تدعوه بكلبي المسكين أو قطتي المسكينة. عند عبور تشارليفي التي لا تبعد سوى طلقة مدفع من مزيير، لاحظت الساحة المركزية التي بنيت عام 1605 بأسلوب فخم من قبل شارل دي جونزاغو، دوق نيفيرز ومانتوا. إنها الأخت الجديرة بساحة رويال خاصتنا في باريس. لها نفس الأروقة، وواجهات القرميد والسقوف العالية. مع حلول الليل، لم يكن لدي شيء أفضل لأفعله، نمت. لكنه نوم عنيف ومرّوع، كوني كنت بين شخير الرجل البدين، وشهقات المرأة البدينة. كنت أستيقظ من وقت لآخر على تغيير الخيول، والفوانيس التي تبهرني فجأة من النافذة، والحوارات مثل هذا: "أقول لك؟ أقول لك. مَنْ المغناج حمراء الرأس تلك؟ لا أريدها. أين السيد سيمون؟ سيد سيمون؟ إنه في العمل. هو دائماً في العمل.

إنه يعمل أسرع من طاحونة الهواء ". توقفت عربة النقل مرة أخرى للإبدال. فتحت عيني. كان إعصار يهب، والسماء ملبدة بالغيوم، وطاحونة هائلة كانت تدور بشكل شرير فوق رؤوسنا، بدا وكأنها تنتظر إلينا بمصاييحها كما لو كانت مقتلتي عيني من الفحم المحترق. أحاط الجنود مرة أخرى بالعربة، طلب منا رجل الدرك إبراز جوازات السفر. قعقة السلاسل في إنزال الجسر المتحرك، وضوء مصباح الشارع الذي أظهر أكوامًا من الطلقات وقطع الذخيرة التي تحرق فينا، برهنت أننا وصلنا روكروي.

أيقظني هذا الاسم تمامًا. رغم أنه كان من الصعب رؤية روكروي، لكن من دواعي سروري أن أفكر أنني مررت بهذه الأماكن البطولية، روكروي وسيدان، في اليوم نفسه وفي غضون ساعات قليلة. ولد توريني في سيدان. يمكن القول إن كوند ولد في روكروي تقريبًا.

أما جارايّ البدينان، فتحدثنا مطولاً، وحكى لبعضهما البعض، كما يحدث في مسرحية سيئة الإعداد، أشياء يعرفها كل منهما جيداً بالفعل. "فقط فكر في الأمر، لم يكونوا في روكروي منذ عام 1818. اثنان وعشرون عامًا! السيد كروشارد سكرتير المحافظة الفرعية صديقنا الحميم. يجب أن يكون السيد كروشارد، ذلك العزيز، نائباً الآن، يقارب الوقت منتصف الليل،.... إلخ". في هذه المحادثة الممتعة، أضافت السيدة بعض التعابير الغريبة التي تبدو مألوفاً لها، مثل " أناني كآرنب بري عجوز".

انطلقت العربة، لكن ما زال جارايّ يتحدثان، بذلت الكثير من الجهود كي لا أسمع حديثهما، حاولت الاستماع إلى أجراس الخيول، وضجيج العجلات على الرصيف، وأي صوت قد يحجب ثرثرتها المبتذلة، عندما أتى فجأة لنجدي رنين أجراس ساحر. أعلنت موسيقاهم الناعمة، الخفيفة، البلورية، الخيالية والأثيرية التي تخترق بشكل مفاجئ الليلة المظلم، أننا في بلجيكا، تلك الأرض ذات الأجراس المبهجة. كانوا مسرفين في حيويتهم وسخريتهم المازحة، كما لو أنهم يعاتبون جارايّ الثقيلين بأسلوبهما السوقي المبتذل.

الضجيج الذي أيقظني جعلهما ينامان. خمنت أننا كنا في فوماي، لكن كان الليل شديد الظلمة بحيث لا يمكن تمييز شيء. لذا، كان علي أن أعبر الأطلال الرائعة لقلعة هيرش دون أن أراها، والصخرتين الجميلتين اللتين تدعوان سيدات ميوز كذلك. ميزت بين الحين والآخر في قاع الهاوية المليئة بالضباب، كما لو أنه يمر من خلال ثقب في عمود من الدخان، شيئاً ما أبيض، كان ميوز. أخيراً، لدى بزوغ الفجر، تم إنزال جسر متحرك، وفتحت بوابة، واندفعت العربة عبر ممر ضيق، يساره مكون من صخرة سوداء عمودية، ويمينه مبني غريب طويلة ومنخفض ولا نهاية له، به العديد من الأبواب والنوافذ، كلها مفتوحة على ما

يبدو، وليس له مصاريع أو ستائر أو أغطية أو زجاج، ما سمح لي أن أرى من خلال المنزل الكثيب والرائع الشفق الذي يطلي الأفق على الجانب الآخر من نهر ميوز. في نهاية هذا البناء الفريد هناك نافذة واحدة مغلقة وضعيفة الإضاءة. ثم مرت العربة بسرعة ببرج مهيب، واندفعت في شارع ضيق واستدارت نحو ساحة. خرجت خادمتا الغرف مع الشموع، وصبية الإسطبل مع الفوانيس. كنت في جيبيت.

الفصل الخامس

جيبيت

المهندسون المعماريون الفلمنكيون. جيبيت الصغرى. النقش. - خوسيه جوتيريز. الفتاة الريفية.

تقع هذه المدينة الجميلة على نهر ميوز، الذي يفصل بين جيبيت الكبرى وجيبيت الصغرى. تتقدمها سلسلة من الصخور. على قمّتها حصن شارلمان. النزل المسمى فندق غولدن ماونتن، مريح للغاية، وقد يجد به المسافرون وجبات خفيفة، رغم أنها ليست الأكثر روعة إلا أنها مستساغة للجائعين، كما أنّ السرير وإن لم يكن الأنعم في العالم إلا أنه مقبول للمتعبين.

برج كنيسة جيبيت الصغرى بسيط البناء، أما الخاص بجيبيت الكبرى فأكثر تعقيداً وأكثر روعة. لجأ المهندس المعماري البارز في تخطيط الأخير إلى الأسلوب التالي دون شك: أخذ غطاء الكاهن المربع، ووضع طبقاً كبيراً متجهاً من الأسفل إلى الأعلى، يعلوه قالب

من السكر مع زجاجة، وسنبلة فولاذية تندفع في عنقه، وعلى السنبلة جثم ديك غرضه إبلاغ الناظرين باتجاه هبوب الريح. لنفترض أنه استغرق يوماً لكل فكرة، فلا بد أنه قد استراح في السابع. كان هذا الفنان فلمنكيًا بالتأكيد.

منذ حوالي قرنين من الزمان، تخيل المهندسون المعماريون الفلمنكيون أنه لا يوجد شيء يضاهي جمال القطع الضخمة من الأردواز التي تشبه عدة المطبخ. لذا، عندما يكون لديهم برج لبنائه يستفيدون من هذه المناسبة. زينوا مدنهم بمجموعة من الألواح الجدارية الضخمة.

مع ذلك، لا تزال جيفيت تتمتع بالسحر، خاصة إذا نظرت إليها في المساء من منتصف الجسر. عندما رأيتها، كان الليل، الذي يساعد على حجب أفعال الإنسان الحمقاء، قد بدأ يلقي عباءته على محيط هذا البرج المبني بشكل فريد. طاف الدخان حول أسطح البيوت. على يساري، كانت أشجار الدردار تخشخش بنعومة. على يميني، انعكس برج قديم على سطح ميوز. أبعد من ذلك، لمحتُ عند سفح صخرة شارلمان الخطرة، مبنى ضخماً طويلاً مثل خط أبيض، لم يكن أكثر من منزل ريفي غير مأهول. فوق المدينة قلاع وأبراج وسلسلة من الصخور الهائلة أخفت الأفق عن عيني، وظهر في البعيد، في سماء صافية، نصف القمر بقدر كبير من النقاء، بالغ النعيم لدرجة تخيلتُ أن الله قد كشف لرؤيتنا جزءاً من خاتم عرسه ليُشهد الإنسان على عاطفته الزوجية.

قررتُ في اليوم التالي زيارة البرج الجليل المتوج باحترام ظاهر في جيفيت الصُغرى. الطريق شديد الانحدار ويتطلب استعمال اليدين والقدمين. بعد متاعب طفيفة، وجهد شديد من استخدام أطراف الأربعة، وصلتُ سفح البرج الذي يسير بسرعة نحو الانهيار. وجدتُ باباً ضخماً مغلقاً بفقل كبير. طرقتُ الباب وصرختُ بلا جدوى، فاضطررتُ إلى النزول دون إرضاء فضولي. مع ذلك، لم تذهب جهودي سدى. اكتشفتُ عند عبور الصرح القديم نصباً تذكاريًا كبيراً بين الأنقاض التي تنفتحت كل يوم وتتحول لتراب يتساقط في النهر. على النصب بقايا نقش، لم أتمكن سوى من قراءة الحروف التالية: -

loque . . . sa . l . ombre

Paras . . . modi . sl . acav . p . . , sotros.

وفوق هذه الحروف التي تبدو وكأنها خدشت بأظافر، ظل التوقيع كاملاً: "خوسيه جوتيريز، 1643".

دائمًا ما أثارت النقوش اهتمامي منذ الصبا. وأؤكد لكم أنّ هذا أطلق مزاجًا للتدبّر والتحقيق. ماذا تعني الكتابة على النقش؟ بأي لغة كُتبت؟ قد يُخيّل للمرء من خلال بعض التهجئة أنها فرنسية، لكنّ الكلمتين "para و otros" تنتمي إلى الإسبانية. خلصتُ إلى أنها مكتوبة باللغة القشتالية. تخيلتُ بعد القليل من التأمل أنّ هذه كانت الكلمات الأصلية: -

lo que empesa el hombre
Para simismo dios le acava para los otros.
"ما بدأه الإنسان لنفسه ينهيهِ الله للآخرين".

لكن من هو جوتيريز؟ لا بد أنّ النصب قد أخذ من داخل البرج. حدثت معركة روكوري عام 164. هل كان خوسيه جوتيريز أحد المهزومين إذن؟ هل كتب على جدران الزنزانة السيرة الذاتية الحزينة لحياته و حياة البشرية جمعاء، حتى يبتعد عن الأيام الطويلة والمرهقة؟

في الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي جلستُ وحيدًا بارتياح على مقعد ديليجنس فان جيند. غادرت فرنسا على طريق نامور. مررنا بسلسلة الجبال الوحيدة التي يمكن لبلجيكا أن تفتخر بها. نجح نهر ميوز في التدفق رغم انخفاض هضبة آردين، وكانت النتيجة سهل يسمى فلاندرز. هو سهل قاومت الطبيعة من أجله الجبال، بينما غطّاه الإنسان بالحصون. بعد نصف ساعة من الصعود أُرهِقت الخيول، وعطش السائق، وهم (قد أقول نحن) توقفنا باتفاق أوحّد أمام محل نبيذ صغير، في قرية فقيرة ولكنها خلابة، مبنية على جانبي وادٍ يقطع الجبال. هذا الوادي الذي كان في أحد الأوقات قاع سيل، وفي آخر شارع رئيسي للقرية، صار الآن مرصوفًا بحجارة جرانيت الجبال المحيطة. شاهدنا عند مرورنا ستة خيول مُسرّجة تسير، أو بالأحرى تصعد على طول ذلك الشارع الغريب والمنحدر بشكل مخيف، ساحبة وراءها سيارة كبيرة فارغة بأربع عجلات. كان الأمر يحتاج عشرين حصانًا لسحبها لو كانت محملة. لا يمكنني بأي حال من الأحوال تفسير استخدام مثل هذه العربات في هذا الوادي، إن لم يكن المقصود منها أن تكون بمثابة لوحات الرسامين الهولنديين الشباب الذين التقيناهم على الطريق هنا وهناك، وهم يحملون حقائب على ظهورهم وعصيًا في أيديهم.

ما الذي بمقدور أي شخص فعله خارج العربة سوى التحديق في كل ما يعبر أمام عينيه؟ لن أكون في وضع أفضل لهذا الغرض. أمامي الجزء الأكبر من وادي ميوز. ناحية الجنوب هناك جيفيت الكبرى والصغرى، ترتبطان بلطف من خلال جسريهما. ناحية الغرب برج إيغمونت -نصفه خراب- يلقي بظلاله الهائلة خلفه. وناحية الشمال الخنادق الداكنة التي يصب فيها نهر ميوز، حيث ينشأ بخار أزرق فاتح. أدركت رأسي فوقعت عيني على فتاة ريفية جميلة تجلس بجانب نافذة كوخ مفتوحة تهتم بارتداء ملابسها. وفوق كوخ الريفية، وفي حدود مدّ البصر، شاهدتُ مدافع شارلمان الهائلة التي رسمت حدود فرنسا. أثناء لمحتي الخاطفة رفعت الفتاة الريفية عينيها وابتسمت لدى رؤيتي وحيثني بلطف، ثم، ودون أن تغلق النافذة أو ترتبك، واصلت زينتها.

الفصل السادس

ضفاف نهر الميوز. - دينانت. - نامور.
الليس. - حديقة فلمنكية. - طائر المناكين. - شاهد الضريح. - بائعات هوى قويات. - اللوحات الإرشادية وفائدتها.

وصلت لبيج. الطريق الذي يتبع مسار نهر الميوز من جيفيت فاتن للغاية. ويبدو لي أنّ القليل فقط قد قيل عن ضفاف هذا النهر، لأنها جميلة حقاً ورومانسية. بعد اجتياز مقصورة الفتاة الريفية يمتلئ الطريق بالالتواءات، ونسير خلال ثلاثة أرباع الساعة في غابة كثيفة تتخللها الوديان والسيول، ثم يعترضنا سهل طويل في نهايته تتأؤب مخيف، ومنحدر هائل يصل عمقه إلى ثلاثمائة قدم. عند سفح الهاوية ووسط الأشجار التي تحدّه، يُرى نهر الميوز وهو يتعرج بسلام، وعلى ضفته يوجد حصنٌ صغير يشبه المُعجّنات المتكلفة، أو ساعة من أيام لويس الخامس عشر، بجدران المزخرفة وحديقته الصغيرة والخيالية. ليس هناك ما هو أكثر إثارة للإعجاب وأكثر سخافة من هذا، العمل التافه للإنسان تحيط به الطبيعة بكل سموها. يمكن القول إنه دليل صادم على الذوق السيئ للإنسان والذي يتناقض مع شعر الله الرفيع.

يبدأ السهل بعد الخليج مرة أخرى، حيث يقسمه وادي نهر الميوز كما يقسم الأخدود الأرض. يصبح الطريق على بعد ربع فرسخ شديد الانحدار ويقود فجأة إلى النهر. الانحدار هنا ساحر. تحيط أفرع الكروم بالزعرور المزدهم على جانبي الطريق. يستقيم الميوز عند هذه النقطة، أخضر في مظهره، ويمتد إلى اليسار بين ضفتين مُرصّعتين بأشجار كثيفة. يظهر الجسر بعد ذلك، ثم نهر آخر، أصغر لكنه جميل بنفس القدر، يفرغ نفسه في نهر الميوز. إنه نهر الليس. على بعد ثلاثة فراسخ منه وفي تجويف ناحية اليمين يوجد كهف هان سور ليس الشهير. فجأة تظهر لدى انعطاف الطريق صخرة هرمية ضخمة، مُدببة مثل برج الكاتدرائية. أخبرني السائق أنها صخرة بازارد. يمر الطريق بين الجبل وهذا الحجر الضخم، ثم يستدير مرة أخرى، وعند السفح ترى كتلة ضخمة من الجرانيت تنتهي بقلعة. تقابلنا كنيسة وشارع طويل من البيوت القديمة. إنها دينانت.

توقفنا هنا لحوالي ربع الساعة، ولاحظنا حديقة صغيرة في ساحة العربات، الأمر الذي يكفي لإخبار المسافرين أنه موجود في فلاندرز. الزهور هنا بالغة الجمال. في الوسط تمثالان مطليان، يُمثّل أحدهما امرأة، أو بالأحرى طائر المناكين لأنه يرتدي ثوباً هندياً بقلنسوة عتيقة من الحرير. يبلغ الأذن لدى الاقتراب منه ضجيجاً غير واضح، ثم تلاحظ تدفقاً غريباً للماء. اكتشفنا أنّ هذه الأنثى هي نافورة.

بعد مغادرة دينانت يمتد الوادي ويتسع نهر الميوز تدريجياً. تظهر على يمين النهر أنقاض قلعتين قديمتين. يمكن الآن رؤية الصخور هنا وهناك تحت غطاء غنيّ من الخضرة، غطاء من المخمل الأخضر تحدّه الزهور، يغطي وجه الريف.

على هذا الجانب توجد حقول عشبة الدينار، والبساتين والأشجار المثقلة بالفاكهة، والكرمة المحملة بالثمار، ومن بين أوراقها تبتهج قبيلة الريش بمرح. تُسمع هنا طقطقة البط وهناك قرقرة الدجاج. تُرى الفتيات الصغيرات عاريات الأذرع حتى الكتف يمشين مُتمازحات، وفوق رؤوسهن سلال مُحملة. وتلتقي من وقت لآخر باحة كنيسة القرية بالعين، متناقضة بشكل غريب مع الطريق المجاور المليء بالبهجة والجمال والحياة.

في إحدى ساحات الكنائس، التي تُركت جدرانها المتهدمة مكشوفة لمرأى العشب الطويل الأخضر المزهر، وكأنه يسخر من الفاني الذي يتحلل بالأسفل، قرأتُ على شاهد القبر النقش التالي:-

أيها المسافرين التقى، اركض مع الأموات البائسين.

لم يكن لأيّ تذكّار مثل هذا التأثير عليّ من قبل. عادة يحذر الموتى، ويتضرعون هناك بتوسل.

بعد اجتياز التلة -حيث تشبه الصخور المنحوتة بفعل المطر الحجارة السوداء البالية من نافورة لوكسمبورغ القديمة- بدأنا ندرك اقترابنا من نامور. بدأت منازل النبلاء تختلط بمساكن الريفيين، ولم تكد الفيلا تمر حتى وصلنا القرية.

توقفت العربة في أحد هذه الأماكن، حيث حديقة مُزيّنة جيّدًا بالأعمدة والمعابد الأيونية من جهة، وملهى من جهة أخرى، يشرب لدى بابه عدد من الرجال والنساء. توجد إلى اليمين، على قاعدة من الرخام الأبيض المعزوق بظلال الأغصان، فينوس دي ميديسي، نصف مختبئة بين الأوراق وكأنها تخجل من أن ينكشف غريها لمجموعة الريفيين.

وعلى بعد خطوات قليلة، كانت هناك اثنتان أو ثلاث من بائعات هوى قويّات ذوات مظهر جميل. جلسن على شجرة برقوق ذات ارتفاع كبير، يظهر على إحداهن سلوك رقيق نوعًا ما، لكن وبغضّ النظر تمامًا، لا يكثرث بهنّ الفلاحون في الأسفل.

وصلنا بعد حوالي الساعة إلى نامور التي تقع بالقرب من تقاطع سومبر وميوز. النساء جميلات والرجال وسيمون، ولديهم شيء ممتع ولطيف في مظهرهم. أما البلدة نفسها فليس فيها ما يلفت النظر، ولا شيء في مظهرها العام يدلّ على عراققتها. ليس هناك آثار، ولا هندسة معمارية ولا صروح جديرة بالملاحظة. في الحقيقة ليس بوسع نامور التباهي بأي شيء سوى الكنائس والنوافير ذات المظهر المتواضع، نكهة لويس الخامس عشر الرديئة.

ألهمت نامور قصيدتين فقط، قصيدة بويلو، وأغنية لشاعر مجهول تتناول امرأة عجوزًا وأمير البرتقال. في الحقيقة، لا تستحق نامور المزيد من الشعر.

ترتفع القلعة ببرود فوق المدينة. مع ذلك أقول لك إنني، وباحترام معين، نظرت إلى تلك التحصينات الشديدة التي كان لها شرف أن يحاصرها فوبان ويدافع عنها كوهورن. وحيث لا توجد كنائس أقوم بدراسة لاقتات المحلات. لهذا دلالة طريفة بالنسبة للمراقب. بالإضافة إلى ما تكشفه لنا بخصوص المهن السائدة والصناعات المحليّة، تزخر اللاقتات بالعبارات الخاصة، والأسماء البرجوازية، التي تكاد تكون مهمة للدارس مثل أهمية أسماء النبلاء، وتحمل في أكثر أشكالها سذاجة سمات تنيرك في الحال.

في ما يلي ثلاثة أسماء أخذت عشوائيًا من واجهات متاجر نامور، لكل منهم أهميته. "زوجة ديبوسي، التاجرة". تشعر لدى قراءة ذلك أنك في بلد كان فرنسيًا بالأمس وأجنبيًا اليوم، وربما يعود فرنسيًا غدًا. بلد تتغير فيه اللغة وتندهور بشكل غير مُلاحظ، ويتبدّى تحولًا ألمانيًا غير مصقول إلى التعبيرات الفرنسية. الثلاث كلمات فرنسية، لكن العبارة لم تعد كذلك. "بيريت المصلوب، البائع". هذا مناسب جدًّا للفلاندرز الكاثوليك، سواء كان اسمًا أو لقبًا. سيكون المصلوب مستحيلًا في أي جزء من فرنسا الفولتيريّة. "مينينديز وودون، الساعاتي"، اسم قشتاليّ واسم فرنسي ملتحمان. أليس التاريخ الكامل لهيمنة إسبانيا على البلدان المنخفضة مكتوبًا ومثبتًا

ومرتبطاً باسم واحد صحيح؟ بالتالي لدينا ثلاثة أسماء، يعبر كل منها ويلخص أحد الجوانب العظيمة للبلد، يخبر أحدها عن اللغة، والثاني الدين، والآخر التاريخ. قد نلاحظ أيضاً تكرار كلمة "المالك" على لافتات متاجر دينانت ونامور ولييج كثيراً. نجدها أيضاً بذات الطريقة في حي باريس وروين مع "Desenne" و "Deseine" في الختام، بملاحظة قد تبدو رائعة إلى حد ما، رأيت في إحدى ضواحي نامور "يانوس، الخباز"، ذكرني هذا بما رأيته عند مدخل ضاحية سان دوني في باريس، "نيرون، الحلواني"، وفي أرييس على السطح العلوي لأطلال المعبد الروماني "ماريوس، الكوافير".

الفصل السابع

ضفاف نهر الميوز. - هوي. - لياج.
كنيسة من القرن العاشر. - أعمال حديد السيد كوكريل، ومظهرها الفريد. - شارع. بول في لياج. - قصر
أمراء لياج الكنسيين. - زخارف مهمة لغرفة في لياج.

لدى مغادرتنا نامور دخلنا شارعاً رائعاً مليئاً بالأشجار، حيث عملت أوراق الشجر على إخفاء المدينة عن رؤيتنا، بقممها اللثيمة غير المألوفة، ومظهرها الغريب الفريد لدى رؤيتها من على البعد. بعد اجتياز تلك الأشجار الجميلة اشتمنا نسيم نهر الميوز المنعش، وبدأ الطريق برياح مرحة على طول النهر. يتسع نهر الميوز عند تقاطع نهر سومبر. يمتد الوادي، وتظهر جدران مزدوجة من الصخور، تشبه بين الحين والآخر حصوناً عملاقة، وأطلال أبراج محصنة كبيرة، وقلاعاً هائلة ضخمة. تحتوي صخور نهر الميوز على كمية كبيرة من الحديد، ذات لون جميل متى شاهدتها في صورتها الطبيعية، لكنها تتحول لدى تكسيرها إلى ذلك اللون الرمادي المزرق

البغيض الذي يعم بلجيكا بأكملها. يفقد ما هو رائع في الجبال عظمتة عندما يتكسر ويتحول إلى منازل.

"الله صانع الصخور، والإنسان باني المساكن".

مررنا على عجل عبر قرية صغيرة تسمى سانسون، بالقرب من أنقاض قلعة يُقال إنها بنيت أيام كلوديون. تنتشياً صخور هذا المكان بوجه رجل، لا يفشل السائق في لفت انتباه المسافر إليه. ثم جننا إلى آردين، حيث رأيتُ ما سيكون موضع تقدير كبير من قبل الأثريين، كنيسة ريفية صغيرة من القرن العاشر لا تزال سالمة. نرى في قرية أخرى (أظنها سكلابين) بأحرف كبيرة وفوق الباب الرئيسي للكنيسة النقش التالي:

"كلاب خارج بيت الله"

إن كنتُ القسيس القِيم لا اعتبرُ أن دخول الرجال أكثر أهمية من خروج الكلاب. أصبحت الجبال بعد عبور الأردن مبعثرة، ونهر الميوز الذي لم يعد يجري على جانب الطريق، يعبر بين البراري. لا يزال الريف جميلاً لكن مدخنة المصنع -تلك المسألة الحزينة لحضارتنا الصناعية- كثيراً ما تلفت الأنظار. يلتقي الطريق مرة أخرى بالنهر. نرى تحصينات شاسعة مثل أعشاش النسور الجاثمة على الصخور، كنيسة رائعة من القرن الرابع عشر وجسراً قديماً بسبعة أقواس. نحن في هوي.

هوي ودينانت أجمل المدن الواقعة على نهر الميوز. الأولى في منتصف الطريق تقريباً بين نامور ولياج، والأخيرة في منتصف الطريق بين نامور وجيفيت. في وقتنا الحاضر تُمثل هوي حصناً رهيئاً، بينما في السابق كانت كومبونة حربية، وصمدت بشجاعة في حصار ليدج، كما فعلت دينانت مع نامور. كانت المدن في تلك الأزمنة البطولية مثل الممالك الآن، تعلن الحرب دائماً ضد بعضها البعض.

نرى من وقت لآخر على ضفاف النهر، بعد مغادرة هوي، مصنعا للزنك، يبدو بمظهره المُسوّد والدخان الذي يخرج عبر الأسطح المتصدعة، كما لو أن حريقاً يندلع، أو مثل منزل يحترق وأطفئ تقريباً. بجانب حقل فول، وفي شذا حديقة صغيرة، ترى العين منزلاً من الطوب به برج أردوازي، وكُرمة تتشبث بجدرانها، ويمامات على السطح وأقفاص على النوافذ، فنفكر في تينير وميريس.

دنت ظلال المساء. توقفت الريح، الأشجار تخشخش، ولا شيء يُسمع سوى تموج الماء. أضواء المنازل المجاورة خافتة، وأضحت كل الأشياء غامضة. ثناء الركاب وقالوا: "سنكون في لياج بعد ساعة". ظهر في هذه اللحظة فجأة مشهد فريد. عند سفح التلال، التي كانت بالكاد محسوسة، تتوهج كرتان دائريتان ناريتان مثل عين النمر. يوجد على جانب الطريق ساقٌ مُدخنة مظلمة ومخيفة تعلوها شعلة ضخمة، ألقت مسحة قاتمة على الصخور والغابات والوديان المجاورة. وبالقرب من مدخل الوادي، ومخبأ في الظل، هناك فمٌ من الفحم الحيّ فُتح وأُغلق فجأة، ووسط ضوضاء مخيفة أطلق لسان من نار. كان هذا هو ضوء الأفران.

بعد اجتياز المكان المُسمّى فليمال الصغرى، لا يمكن وصف المشهد بالغ الروعة. بدا أنّ كل الوادي يشهد حريقًا هائلًا. دخان يتصاعد من هنا، وألسنة النيران تتصاعد من هناك. في الواقع، يمكننا تخيّل أنّ جيشًا معاديًا سلب البلاد، وأنّ عشرين منطقة مثلت في تلك الليلة المظلمة جميع مظاهر ومراحل الحريق الهائل. يشتعل بعضها، ويلف الدخان البعض، والبعض الآخر محاط بالنيران.

هذه المرحلة من الحرب سببها السلام. هذا الرمز المخيف للدمار هو تأثير الصناعة. أفران مصانع حديد السيّد كوكريل، حيث تُصبّ المدافع الكبيرة، وتصنع المحركات البخارية ذات القوة الأعلى، منفردًا يلاقي العين.

تأتي ضوضاء جامحة وعنيفة من فوضى الصناعة هذه. لدي فضول للاقترب من أحد هذه الأماكن المخيفة، ولم يسعني سوى الإعجاب بجهود العمّال. المشهد استثنائي، حيث أعطى احتفال الساعة مظهرًا خارقًا للطبيعة. العجلات، والمناشير، والغلايات، والأسطوانات والمقاييس، كل تلك الأدوات الرهيبة التي تسمى آلات، والتي يعطيها البخار حياة مخيفة وصاخبة، وصليل، وطحن، وصراخ وهمس. في بعض الأحيان، عندما يقوم العمال، الملطّخون بالسواد، بدفع الحديد الساخن في الماء، يُسمع صوت أنين مثل صوت الهيدرا والتنانين التي تعذبها الشياطين في الجحيم.

لياج إحدى تلك البلدات القديمة التي في طريقها لتصبح جديدة. تحول مؤسف. إحدى البلدات التي اختفت منها أشياء من العصور القديمة، استبدلتها بواجهات بيضاء غنية بالتماثيل المدهونة، حيث تسقط في الاضمحلال المباني القديمة الجيدة، ذات أسقف الألواح الخشبية، وكوة النوافذ، والأجراس الرنانة، وأبراج الحرس، وديك الرياح.

بينما يحدق إليها برعب مواطن غليظ الرأس، مشغول بـ "الدستور"، يقرأ ما لا يفهمه، لكنه مغرور بالمعرفة المفترضة التي وصل إليها. يُمثّل أوكتري، وهو معبد يوناني، قلعة محاطة بأبراج، ومجموعة سمكة من الحراب، تسدّ السيقان الطويلة للأفران مكان أبراج الكنائس الأنيقة. ربما كانت المدينة القديمة صاحبة، لكن الحديثة منتجة للدخان.

لم تعد لياج تحوي كاتدرائية أمير الأساقفة الهائلة التي بناها الأسقف نوتر اللامع في عام 1000م، وهُدمت في عام 1795. ليس بمقدور أحد ذكر اسم ما، لكن يمكن أن تباهى بالأعمال الحديدية للسيد كوكريل.

كما لم يعد هناك دير الدومينيكان أيضاً. الدير الداكن ذو الشهرة اللامعة صرخ نبيلٌ للعمارة الجميلة. في مكانه نرى مسرحاً مزيئاً بأعمدة وتيجان نحاسية، تُعرض على مسرحه الأوبرا.

لياج القرن التاسع عشر، هي لياج القرن السادس عشر. تنافس فرنسا في أدوات الحرب، وفرساي في الإسراف في السلاح. لكن مدينة سانت هوبرت القديمة بكنيستها وقلعتها وبلديتها الكنسية والعسكرية لم تعد مدينة للصلاة والحرب، بل لعمليات البيع والشراء، هي عبارة عن خلية ضخمة من الصناعة. تحولت إلى مركز تجاري ثري، ووضعت أحد أذرعها في فرنسا، والأخرى في هولندا. تأخذ من إحداها باستمرار وتتلقى من الأخرى.

تغير كل شيء في هذه المدينة. حتى أصول مفرداتها لم تفلت من هذا التغيير. يحمل جدول ليجيا القديم الآن تسمية ينبوع ري دي كوك.

رغم ذلك، يجب أن نعترف بأن لياج تقع بشكل مفيد بالقرب من الحاجب الأخضر لجبل سانت والبيرغ. ويقسمها نهر الميوز إلى مدن دنيا وعليا، يتخللها ثلاثة عشر جسراً لبعضها مظهر معماري، وتحيط بها الأشجار والتلال والمروج. تحتوي على أبراج وساعات وبوابات الأبراج، مثل برج سانت مارتن وأميركور، تُثير لبّ الشاعر أو جامع الأثریات رغم أنه مذهب بالوضوء والدخان والسنة لهب المصانع المحيطة.

تمكنت من زيارة أربع كنائس فقط بسبب الأمطار الغزيرة. كاتدرائية القديس بول الحالية، وهي مبنى نبيل من القرن الخامس عشر، يضمّ ديرًا قوطيًا مع مدخل ساحر

من عصر النهضة، ويعلوه برج جرس. وقتها لم يكن هناك مهندس معماري غير كفاء كما في عصرنا ليفسد كل الزوايا الأنيقة. القديس جان هو واجهة قبر من القرن السادس عشر، يتكون من برج مربع كبير، مع أبراج أصغر على كل جانب. سانت هوبرت هو بالأحرى مبنى فاخر، أروقتة السفلية ذات طراز ممتاز. القديس دينيس، كنيسة غربية من القرن العاشر، ببرج كبير من القرن الحادي عشر. يحمل البرج آثار إصابة بالنيران. ربما حرق أثناء انفجار النورمان. أصلحت العمارة الرومانية ببراعة، وأنجز برج الكنيسة بالطوب. هذا واضح تمامًا وله تأثير فريد.

أثناء زهابي من سانت دينيس إلى سانت هوبرت، عبر متاهة من الشوارع الضيقة القديمة، مزينة هنا وهناك بالسيدة العذراء، وجدّتي فجأة بقرب جدار حجري كبير داكن، وعند الملاحظة الدقيقة اكتشفت أنّ الواجهة الخلفية تشير إلى قصر من العصور الوسطى. ظهر أمامي باب غامض فدخلت. بعد لحظات وجدّتي في ساحة واسعة اتضح أنها قصر أمراء لياج الكنسيين. ربما تكون مجموعة الهندسة المعمارية هذه هي الأكثر كآبة ونبلاً التي رأيتها على الإطلاق.

هناك أربع واجهات شاهقة من الجرانيت، تعلوها أربعة أسطح من الألواح الحجرية الرائعة، مع نفس العدد من الأروقة. تعرض اثنتان من الواجهات الكاملة تمامًا، التنظيم الرائع للأشكال والأقواس التي ميزت نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. تحتوي نوافذ هذا القصر الديني على قوائم مثل تلك الموجودة في الكنيسة. لسوء الحظ، أعيد بناء الواجهتين الأخيرتين، اللتين دمرتهما النيران عام 1734، على طراز تلك الحقبة المثيرة للشفقة، والذي يميل إلى الانتقاص من التأثير العام. مرت الآن مائة وخمس سنوات منذ أن احتل آخر أسقف هذا الهيكل الرائع.

تم الحفاظ على الرواق الرباعي الذي يحيط بالفناء بشكل رائع. لا يوجد شيء أكثر إمتاعاً للدراسة من الأعمدة التي يوضع عليها الغطاس، وهي من الجرانيت الرمادي مثل باقي القصر. أثناء فحص الصفوف الأربعة، يختفي نصف محور العمود، في الأعلى أحياناً ثم في الأسفل، تحت تضخم غني من الأرابيسك. يتضاعف التضخم في الجزء الغربي للأعمدة ويخفي الساق تمامًا. يتحدث هذا فقط عن النزوة الفلمنكية للقرن السادس عشر. ولكن ما يُحير هو أنّ تيجان هذه الأعمدة، المزينة برؤوس وأوراق الشجر وشخصيات نهاية العالم والتنين والكتابات الهيروغليفية، تبدو وكأنها تنتمي إلى

فنّ عمارة القرن الحادي عشر. ويجب أن نتذكر أنه شرع في بناء قصر لياج في عام 1508، من قبل الأمير إيرارد دي لا مارك، الذي حكم لمدة اثنين وثلاثين عامًا. في الوقت الحاضر أصبح صرح هذا الضريح فناءً لبائعي كتب العدالة، بينما نرى متاجر لعب الأطفال تحت الأقواس، وأكشاك الخضار في الفناء. تظهر العبادة السوداء لممارسي القانون وسط سلال من الملفوف الأحمر والأخضر. مجموعات من التجار الفلمنكيين، بعضهم مرح والآخر كئيب، يسخرون ويتشاجرون أمام كل عمود. يظهر المترافعون المنزعجون من جميع النواذب. في ذلك الفناء الكئيب، الذي كان في السابق منعزلاً وهادئاً مثل دير، يختلط لسان المحامي الذي لا يعرف الكلل مع ثرثرة وضوضاء ولغو المشتريين والبائعين. يوجد أعلى الأسطح المرتفعة للقصر برج سام وضخم مربع من الطوب، كان سابقاً برج حرس الأمير -الأسقف، أصبح الآن سجناً للنساء سيئات الحظ. ربما اختلق هذا النقيض الحزين البارد البرجوازيون الفولتيريون قبل ثلاثين عامًا على سبيل الدعابة، لكن ينفذه البرجوازيون العمليون النفعيون اليوم بأسلوبهم الغبيّ دون أي إحساس بالتناقض.

تمكنتُ لدى مغادرتي القصر من الباب الرئيسي من فحص الواجهة الحالية. عمل تقشعر له الأبدان لمهندس كارثي من العام 1748، لا يختلف عن مأساة لاغرانبج-شانسل في الحجر والرخام. أصرّ شخص نزيه في الساحة أمام هذه الواجهة على وجوب أن أعجب بها. أدركتُ ظهري له دون أسف، رغم إخباره لي أنّ لياج هي "لايك" بالهولندية، و"لوتش" بالألمانية، و"ليوديوم" باللاتينية.

رُيئتُ غرفتي في لياج بستائر من الموسلين مطرز عليها كنتالوب وليس باقات ورود. كما كانت هناك عدة صور تروي انتصار الحلفاء وكوارثنا في عام 1814. ها هي الأسطورة المطبوعة أسفل إحدى هذه اللوحات:-

معركة أركيس سور أوب، 21 مارس 1814. أسر الجزء الأكبر من حامية هذا المكان، وتتكون من الحرس القديم. ودخل الحلفاء باريس منتصرين في 22 أبريل.

الفصل الثامن

ضفاف نهر فاسدري. -فيرفييتوا.
السكك الحديدية. - عمال المناجم أثناء العمل. - لويس الرابع عشر.

والعربة على وشك مغادرة لياج إلى آخن صباح الأمس، أزعج مواطن بارز الركاب برفضه شغل مقعد الشخصيات الهامة الذي أخبره قائد العربة أنه يخصه. عرضتُ عليه مقعدي طلباً للسلام. قبله المسافر المتعالي دون أن إظهار أي ممانعة ودون شكر حتى. تدرجت السيارة الثقيلة على الفور. سررتُ بالتغيير. ورغم أن الطريق لم يعد يجاور ضفاف نهر الميوز، بل يجاور ضفاف فاسدري الآن، إلا أنه جميل للغاية. منحدر فاسدري سريع، ويمرُّ عبر فيرفييتوا وشودفونتين، على طول الوادي الأكثر سحراً في العالم. نحصل في شهر أغسطس، خاصةً إن كان اليوم جيداً والسماء زرقاء، على وادٍ أو حديقة، وبالتأكيد على جنة. على الطريق، يكون النهر دائماً في الأفق. يمرُّ في وقت من الأوقات بقرية مبهجة، وتحفه في أخرى قلعة قديمة بأبراج مربعة. يغير الريف مظهره فجأة عند الالتفاف على منحدر التل، تكتشف العين من خلال فتحة في حزمة كثيفة بين الأشجار، منزلاً منخفضاً بجانبه عجلة ضخمة، إنها طاحونة مائية. يمتلئ الوادي بين شودفونتين وفيرفييتوا بالسحر، وحيث أن الطقس ملائم فقد أضاف الكثير لإحياء المشهد. تلعب القردة على درجات الحديقة. ويهز النسيم أوراق شجر الحور الطويل، وتبعث بما يشبه موسيقى للسلام، تناغم الطبيعة، بينما تستريح العجول الوسيمة في مجموعات من ثلاثة وأربعة على العشب الأخضر، تظللهم ستائر مُورقة من أشعة الشمس. وبعيداً عن كل المنازل، ترعى بقرة جميلة بسلام، تستحق نظر أرجوس¹. تُسمع النغمات الناعمة للفلوت الطافي على النسيم بوضوح.

" Mercurius septem mulcet aruudinibus."

¹ أرجوس بانوبتس وفق الأساطير الإغريقية هو عملاق ذو عيون كثيرة تنتشر في رأسه وسائر جسده، قيل إنها 100 عين. تروي الأسطورة أن الإلهة هيرا كلفت أرجوس بحراسة أيو، وذلك بعد أن حوّلها عشيقها زيوس إلى بقرة صغيرة. (المترجم)

تم شق خط السكة الحديد -ذلك المشروع الضخم الذي يمتد من أنتويرب حتى لياج، ويمتد إلى فيرفييتوا- عبر الصخور الصلبة، ويمتد على طول الوادي. يلاقينا جسر هنا، وجسر هناك، وأحياناً نرى من على البعد، عند سفح صخرة هائلة، مجموعة من الأجسام المظلمة تشبه تلاً من النمل مشغولة بتفتيت الغرانيت الصلب. يؤدي هؤلاء النمل، رغم صغر حجمهم، عمل العمالقة.

عندما يكون الصدع واسعاً وعميقاً يصدر عنه صوتٌ غريبٌ من الداخل. قد يظنُّ المرء في الواقع أنَّ الصخرة تعلن شكواها عبر الفم الذي صنعه الإنسان.

فيرفييتوا مدينة صغيرة غير مهمة، مقسمة إلى ثلاثة أقسام، هي تشيك تشاك، وبراس كروت، ودردنيل. لاحظتُ لدى مرورنا طفلاً صغيراً يبلغ من العمر حوالي ست سنوات، يجلس على عتبة باب يُدخِّن غليونه، بكل الهواء الخارق للغراند ترك. نظر التافه الصغير إلى وجهي وانفجر في نوبة من الضحك، ما جعلني استنتج أنَّ مظهري كان سخيلاً إلى حد ما.

يمتدُّ الطريق بعد فيرفييتوا على فاسدري حتى سيمبورغ. سيمبورغ المدينة التي أوجدها لويس الرابع عشر، والتي امتلأت بالكُونتات النبلاء، هي مثل قطعة باتيه ذات قشرة صلبة صعبة المضغ. لكنها في الوقت الحالي قلعة مفككة.

الفصل التاسع

آخن. - قبر شارلمان.

أسطورة الذئب والأناس. - شارلمان. - بربروسا. -تفريغ شارلمان. - معرض الآثار. -كرسي شارلمان. -
الدليل السويسري. - دار البلدية، مكان ميلاد شارلمان.

آخن لغير السائح عبارة عن نافورة معدنية، دافئة، باردة، ساخنة وكبريتية. أما للسائح فهي للحصون والحفلات الموسيقية. وهي للحاج مكان للآثار المقدسة، حيث يُعرض كل سبع سنوات رداء السيدة العذراء، دم يسوع، القماش الذي غطى رأس يوحنا المعمدان بعد قطع

رأسه. وهي بالنسبة للأثريين كنيسة نبيلة لفتيات الدير، مرتبط بدير الذكور الذي بناه القديس غريغوري ابن نيكيفوروس إمبراطور الشرق. وهي للصيد الوادي القديم للخنازير البرية. وللتاجر عبارة عن قطعة قماش وإبر ومسامير. وهي لغير التاجر أو الصانع أو الصيد أو الأثري أو الحاج أو السائح أو غير الصالح، مدينة شارلمان.

ولد شارلمان وتوفي في آخن. ولد في القصر القديم الذي لم يتبق منه سوى البرج، ودفن في الكنيسة التي أسسها عام 796، بعد عامين من وفاة زوجته فاسترادا، والتي كرستها ليو الثالث في 804. ويقول التراث إن اثنين من أساقفة تونغريس الذين دفنوا في مايس تريخت، نهضوا من قبورهم كي يكملوا في ذلك الاحتفال ثلاثمائة وخمسة وستين من الأساقفة والمطارنة، لتمثيل أيام السنة.

شهدت هذه الكنيسة التاريخية والأسطورية، التي سميت المدينة تيمناً بها، العديد من التحولات خلال الألف سنة الماضية.

ذهبت إلى الكنيسة الصغيرة ما إن دخلت آخن.

يعود تاريخ المدخل المبني من الجرانيت الرمادي المزرق إلى عهد لويس الخامس عشر، وبه أبواب تعود إلى القرن الثامن. وضعت على يمين المدخل كرة برونزية كبيرة تشبه الأناناس، على عمود من الغرانيت. وعلى الجانب المقابل، على عمود آخر، يوجد ذئب مصنوع من المعدن نفسه، يتجه نصفه نحو المارة، فمه نصف مفتوح وأسنانه بارزة. هذه هي أسطورة الذئب والأناناس، تتلوها يوميًا عجوز المكان للمسافر المستفسر: -

"منذ زمن بعيد، رغب أهل آخن الطيبون في بناء كنيسة. وُضع بعض المال جانبًا لهذا الغرض. شُيد الأساس، وبنيت الجدران، وبدأ وضع العارضات الخشبية. لم يُسمع شيء لمدة ستة أشهر سوى ضجيج المناشير والمطارق والفؤوس الذي يصم الأذان. لكن في نهاية تلك الفترة، نفذ المال. طُلبت بعض المساعدة من الحجاج، ووضع صحن على باب الكنيسة، لكن وبشق الأنفس تمكن الناس من جمع ما قيمته ليارد واحدًا فقط (عملة معدنية قديمة). ما الذي ينبغي القيام به؟ اجتمع مجلس الشيوخ، اقترحوا، وجادلوا، ونصحوا، واستشاروا الناس. رفض العمال مواصلة عملهم. تشبثت الحشائش، والعليق، واللباب وجميع الحشائش الوقحة الأخرى التي تحيط بالآثار، بالحجارة الجديدة للصرح المهجور. ألم يكن هناك بديل آخر غير توقف بناء الكنيسة؟ اعترت مجلس الشيوخ المجيد حالة من الذعر.

ذات يوم وفي خضم نقاشاتهم، دخل رجل غريب طويل القامة ذو مظهر محترم. "يوم سعيد أيها السادة. ما هو موضوع المناقشة؟ تبدوون مرتبكين. أعتقد أنّ كنيسةكم تثقل على قلوبكم. لا تعرفون كيف تنهونها. يقول الناس إنّ المال هو الشرط الرئيسي لانتهاؤها". قال أحد أعضاء مجلس الشيوخ: "لتذهب أيها الغريب إلى الشيطان. سيكلف الأمر مليوناً". قال المجهول: "هناك مليون". فتح النافذة وأشار نحو عربة تجرها ثيران ويحرسها عشرون زنجياً مسلحين حتى أسنانهم.

"ذهب أحد العُمد مع الشخص الغريب إلى العربة وأخذ أول كيس صادم يده، ثم عادا كلاهما. وُضع الكيس أمام مجلس الشيوخ، ووجد أنه مليء بالذهب". نظر العُمد بأعين تعكس الحماسة والمفاجأة، وطلبوا من الغريب هويته.

"زملائي الأعزاء، أنا الرجل الذي لديه مال تحت إمرته. ما الذي تحتاجون إليه أكثر؟ أسكن في الغابة السوداء، بالقرب من بحيرة ويلدسي، وليس بعيداً عن أنقاض هايدنستات، مدينة الوثنيين. أمتلك مناجم ذهب وفضة، وأتعامل في الليل مع ملايين الأحجار الكريمة. لكن لدي خيال غريب. في الواقع، أنا كائن حزين كئيب، أمضي أيامي محققاً في البحيرة الشفافة، أشاهد العواصب وترايتونات الماء، وأراقب نمو برمائية البطباط بين الصخور. لكنها كانت هدنة من الأسئلة والقصص الخاملة. لقد فتحت قلبي، وأفادتني كثيراً. هنا المليون التي تحتاجونها، هل ستقبلونها؟

قال مجلس الشيوخ: "بإيمان، نعم، سننهي كنيسةنا".

قال الغريب: "حسناً هو لكم، لكن تذكروا هناك شرط".
"ما هو؟"

"أنهوا كنيسةكم أيها السادة. خذوا كل هذا المعدن الثمين، لكن عدوني مُقابله بتقديم الروح الأولى التي تدخل الكنيسة يوم تكريسها".

"أنت هو الشيطان". بكى السادة.

رد أوري: "أنتم حمقى".

"بدأ العُمد في رسم علامة الصليب، شحبوا، وارتجفوا، لكن هزّ أوري -الرفيق الغريب- الكيس الذي يحتوي على الذهب، وضحك حتى كاد يشق جانبي فمه، وسرعان ما اكتسب ثقة السادة المحترمين. جرت المفاوضة، والشيطان رجل ذكي وهو ما جعله شيطناً". قال: "في النهاية، أنا من سيخسر بهذه الصفقة. سيكون لديكم مليونكم وكنيسةكم، أما أنا، سيكون لي روح فقط".

سأل السادة المرعوبون: "روح من يا سيدي؟".

"أول من يأتي، أحد المنافقين المرائين ربما، الذي يبدي تدينه ويظهر حماسه للقضية، هو من سيدخل أولاً. لكن يا أصدقائي، كنيسةكم واعدة، وتسعدني الخطة. سيكون الصرح في رأيي رائعاً. أرى بسرور أن المهندس المعماري الخاص بكم يفضل طرجمات الزاوية الفرعية على تلك الخاصة بمونبلييه. أنا لا أكره القبو المقنطر، لكن ما زلت أفضل الناتئ. أعترف أنه صنع المدخل بذوق شديد، لكنني لست متأكدًا مما إذا كان حريصًا على سماكة الكتلة الخرسانية. ما اسم المهندس المعماري الخاص بكم؟ أخبره عني، أنه لكي يصنع بابًا جيدًا يجب أن تكون هناك أربعة ألواح. مع ذلك، الكنيسة ذات طراز جيد للغاية ومعدلة جيدًا. سيكون من المؤسف أن نتجاهل ما بدأ على نحو جيد، يجب أن تنهوا كنيسةكم. تعالوا يا أصدقائي، المليون من أجلكم، والروح من أجلي. أليس كذلك؟"

فكر المواطنون في النهاية، يجب أن نشعر بالرضا أنه اكتفى بروح واحدة. قد يجد إن لاحظ باهتمام أنه نادرًا ما توجد واحدة في المكان كله ليست ملكه".
أُبرمت الصفقة وأُقل على المليون، واختفى أوري في شعلة زرقاء. انتهت أعمال الكنيسة بعد ذلك بعامين.

"يجب أن تعلم أن جميع أعضاء مجلس الشيوخ أقسموا يمينًا على الحفاظ على سرية الصفقة. ويجب أن يكون مفهوماً أيضاً أن كل واحد منهم في نفس المساء حكى القصة لزوجته. عندما اكتملت الكنيسة، عرفت المدينة بأكملها -بفضل زوجات الشيوخ- سر المجلس، ولن يدخل أحد الكنيسة. كان هذا إحراجًا أكبر من الأول حتى. أقيمت الكنيسة ولكن لم يدخلها أحد. تم الانتهاء منها لكنها فارغة. ما فائدة كنيسة بهذا الوصف؟"

"اجتمع مجلس الشيوخ لكنهم لم يتمكنوا من فعل شيء. واستدعوا أسقف تونغريس الذي أصابته الحيرة بذات القدر. رُوجعت شرائع الكنيسة دون جدوى. وأخيرًا، أحضر الرهبان".
قال أحدهم: "يا إلهي، يبدو أنكم تضيعون وقتكم سدى. أنتم مدينون لأوري بأول نفس تمر من باب الكنيسة، لكنه لم يشترط نوع الروح. أؤكد لكم أيها السادة أن أوري هذا هو في أفضل الأحوال حمار. بعد صراع قاسٍ، ليؤخذ ذئب حي من وادي بورشيت، واجعلوه يدخل الكنيسة. يجب أن يكون أوري راضيًا. يجب أن تكون له روح، رغم أنها روح ذئب. صاح السادة: "برافو، برافو".

دُقت الأجراس فجر اليوم التالي.

صرخ السكان: "اليوم هو يوم تكريس الكنيسة، لكن من يجرؤ على الدخول أولاً؟"

صرخ أحدهم: "لن أفعلها". وهربت من شفاه الآخرين: "ولا أنا ولا أنا". وصل أعضاء مجلس الشيوخ ورجال الكنيسة أخيراً، يتبعهم رجال يحملون الذئب في قفص. أعطيت الإشارة لفتح باب الكنيسة وباب القفص في وقت واحد، اندفع الذئب بنصف جنون من الخوف نحو الكنيسة الفارغة، حيث ينتظر أوري بقم مفتوح وعينين مغمضتين. اهتاج لدى اكتشافه أنه قد ابتلع ذئباً. صرخ بشدة وطار لبعض الوقت تحت الأقواس العالية، محدثاً ضوضاء مثل عاصفة، وركل لدى خروجه الباب بغضب، محدثاً فيه صدعاً من الأعلى إلى الأسفل".

بناءً على هذه القصة، وُضع تمثال الذئب على الجانب الأيسر من الكنيسة، وأناناسة تمثل روحه البائسة على اليمين.

يجب أن أضيف قبل أن أنهى الأسطورة، أنني بحثت عن الصدع الذي صنعه كعب الشيطان لكنني لم أجده.

عند الاقتراب من الكنيسة ذات المدخل الضخم، لم يكن التأثير مذهلاً. تعرض الواجهة أنماطاً مختلفة من العمارة الرومانية والقوطية والحديثة بدون ترتيب وبالتالي بدون عظمة. لكن وعلى العكس، إن وصلنا إلى الكنيسة الصغيرة المبنية من قبل شيفيت، فالنتيجة تكون غير ذلك. إن مظهر القرن الرابع عشر المرتفع بكل جراته وجماله، وبراعة درابزينه، وتنوع كراغله، وتدرج الحجارة الداكنة، والنوافذ الكبيرة المستعرضة، يثيرون إعجاب الناظر.

مع ذلك، نجد أن الجانب المهيّب الذي تفرضه الكنيسة سيكون بعيداً عن الشكل الموحد. في نوع من التجويف بين القبا والمدخل، تم إخفاء قبة أوتو الثالث، التي بنيت فوق قبر شارلمان في القرن العاشر، عن الأنظار. تخيم علينا بعد لحظات قليلة من التأمل رهبة فريدة عند التحديق في هذا الصرح الاستثنائي، لا يزال الصرح العظيم الذي بدأه شارلمان غير مكتمل، صرح تمثل عمارته جميع الأنماط، مثل إمبراطوريته التي تتحدث بجميع اللغات. للمتأمل، هناك تشابه غريب بين هذا الرجل الرائع وهذا المبنى العظيم.

بعد تجاوز السقف المقوس للرواق، وتركت ورائي الأبواب البرونزية العتيقة التي تعلوها رؤوس أسود، لفتت انتباهي قاعة مستديرة من طابقين، عرضت عليها جميع الخيالات المعمارية. عندما وقعت عيني على الأرض رأيت كتلة كبيرة من الرخام الأسود، عليها نقش مكتوب بأحرف نحاسية: -

تشارلز العظيم

ليس هناك ما هو أكثر وضاعة من أن ترى الزخرفة الرديئة التي تحيط بهذا الاسم الكارلوفينجيانى العظيم. ملائكة تشبه كيويبيدات مشوهة، وأغصان نخيل مثل ريش ملون، أكاليل زهور، وأربطة من الشرائط توضع تحت قبة أوتو الثالث. وعلى قبر شارلمان. الشيء الوحيد هنا الذي يظهر الاحترام لروح هذا الرجل العظيم هو مصباح ضخمة، يبلغ قطره اثنا عشر قدمًا، مع 48 موقدًا، هدية من قبل بارباروسا في القرن الثاني عشر، وهو مصنوع من النحاس المطلي بالذهب، ويأخذ شكل تاج، ويتدلى من السقف فوق الكتلة الرخامية بواسطة سلسلة حديدية يبلغ طولها حوالي سبعين قدمًا. من الواضح أنه تم نصب تمثال تذكاري آخر لشارلمان. لا يوجد ما يقنعنا بأن هذا الرخام المحاط بالنحاس من العصور القديمة.

بالنسبة للحروف المطبوعة "تشارلز العظيم" فهي ليست أقدم من 1730. لم يعد شارلمان موجودًا تحت هذا الحجر. في عام 1166، تسبب فريديريك بربروسا - الذي لا تعوض هديته رغم روعتها بأي حال من الأحوال عن هذا التدنيس- في تفرغ رفات ذلك الإمبراطور العظيم. طالبت الكنيسة بالهيكل العظمي الإمبراطوري، فصلت العظام وجعلت كل منها رفات مقدسة. يظهر القس في الغرفة المجاورة للناس ذراع شارلمان مقابل ثلاثة فرنكات وخمسة وسبعين سنتيم (السعر الثابت)، ذلك الذراع الذي كان يمسك بزمام العالم لبعض الوقت. بقايا موقرة، تحتوي على النقش التالي الذي كتبه كاتب من القرن الثاني عشر: -

ذراع القديس تشارلز العظيم

بعد ذلك رأيت جمجمة شارلمان، تلك الجمجمة التي يمكن أن يقال إنها قالب أوروبا، والتي كان شماس الكنيسة لوقاحته يضربها بإصبعه.

جميعهم محفوظون في مستودع خشبي، مع عدد قليل من ملائكة يشابهون أولئك الذين ذكرتهم للتو في الأعلى. هذا هو ضريح الرجل الذي عاشت ذكراه لعشرة عصور، والذي لعظمته ألقى بأشعة الخلود حول اسمه. المقدس، العظيم، ينتمون إليه، وهما من أكثر الصفات المهيبة التي يمكن أن تمنحها هذه الأرض للإنسان.

هناك شيء واحد مذهل، وهو ضخامة الجمجمة والذراع. كان شارلمان في الواقع ضخماً من الناحية الجسدية، بالإضافة إلى الهبات العقلية الاستثنائية. كان ابن بيبين القصير، في جسده كما في عقله، عملاقاً ذا قوة جسدية عظيمة وذكاء مذهل.

لفحص هذا المستودع تأثير غريب على الأثري. يحتوي بجانب الجمجمة والذراع على قلب شارلمان. الصليب الذي يحيط بعنق الإمبراطور في ضريحه. وعاء قربان مقدس جميل من عصر النهضة، مهدي من تشارلز الخامس، أفسدته زخارف القرن الماضي عديمة الذوق. أربعة عشر لوحًا ذهبيًا غنيًا بالنحت، كانت تزين فيما مضى كرسي الإمبراطور. وعاء قربان مقدس قدمه فيليب الثاني. الحبل الذي ربط مخلصنا. الإسفنجة التي استخدمت على الصليب. طوق العذراء المقدسة، وطوق الفادي.

في وسط عدد لا يحصى من الزخارف المتكدسة في المستودع مثل جبال من الذهب والأحجار الكريمة، يوجد مزاران يتمتعان بجمال فريد. يحتوي الأول والأقدم، والذي نادرًا ما يتم فتحه، على عظام شارلمان المتبقية. ويحتوي الآخر، من القرن الثاني عشر، قدمه فريديريك بربروسا للكنيسة، على الآثار التي تُعرض كل سبع سنوات. جذب عرض واحد لهذا الضريح، في عام 1696، اثنين وأربعين ألف حاج، وربح في عشرة أيام ثمانين ألف فلورين.

لهذا المزار مفتاح واحد فقط مكون من قطعتين، أحدهما في حوزة أحد رجال الكنيسة والآخر في حوزة ولاية المدينة. يفتح في بعض الأحيان في مناسبات استثنائية مثل زيارة الملك.

رأيت في مستودع صغير ملحق بالمذكور، تقليدًا دقيقًا لتاج شارلمان الجرمانى. ما كان يرتديه كإمبراطور لألمانيا في فيينا، وما يرتديه كملك لفرنسا في ريمس، والآخر، بصفته ملك لومباردي في مينزا بالقرب من ميلانو.

لدى الخروج من الغرفة المقدسة، أمر الشماس أحد الخدام، وهو سويسري، أن يريني الكنيسة من الداخل. أول ما لفت انتباهي هو المنبر الذي قدمه الإمبراطور هنري الثاني، وهو مزخرف ومذهب على طراز القرن الحادي عشر بشكل فخم. يوجد على يمين المذبح قلب السيد أنطوان بيردوليه، الأسقف الأول والأخير لآخن. لم يكن لتلك الكنيسة سوى أسقف واحد، أطلق عليه بونابرت اسم "بريموس أكويجرانينسيس إبيسكوبوس/ أول أسقف لآخن".

فتح دليلي -في غرفة مظلمة في الكنيسة- مستودعًا آخر يحتوي على تابوت شارلمان. تابوت رائع من الرخام الأبيض نُحت عليه حمل بروسيربين. تمثل الفتاة الجميلة أنها تبذل جهودًا يائسة لتخليص نفسها من قبضة بلوتو، لكن الإله أمسك برقبته نصف العارية، وأجبرها أن تتجه ناحية مينيرفا. بعض الحوريات اللاتي حضرن معركة بروسيربين، في

معركة شرسة مع غضبهنّ، بينما يحاول البعض الآخر إيقاف العربّة التي تجرّها تنانين. قبضت إحدى الآلهة بجرأة على أحدهم من جناحه، ويبيكي الحيوان بكل مثول ببشاعة. هذه النقوش البارزة هي قصيدة قوية ومذهلة، مثل صور روما الوثنية، ومثل بعض صور روبنز.

قبل أن يصبح الضريح تابوتًا لشارلمان، كان كما يقال ضريحًا لأغسطس. قادني دليلي بعد صعود درج ضيق إلى معرض يسمى هوخمونستر. يوجد هنا كرسي شارلمان. منخفض وواسع للغاية، وذو ظهر دائري، يتكون من أربع قطع من الرخام الأبيض، دون زخارف أو نحت، مقعده من خشب البلوط المغطى بوسادة من المخمل الأحمر. تقود إليه ست درجات، اثنتان منها من الغرانيت، والبقية من الرخام. وضع على رأس الكرسي تاج، وفي إحدى يديه كرة، وفي الأخرى صولجان. وبجانبه سيف، ووضعت العبادة الإمبراطورية على كتفيه، وصليب المسيح حول عنقه، وأقدامه على تابوت أغسطس/شارلمان في ضريحه، حيث ظل على هذا الوضع لمدة ثلاثمائة وأربعة عشر عامًا (من 852 إلى 1166)، عندما دخل الضريح فريديريك بربروسا متلهفًا لكرسي تتويجه. كان بربروسا أميرًا لامعًا وجنديًا شجاعًا. لذلك لا بد أنها كانت لحظة غريبة بشكل فريد عندما وقف هذا الرجل المتوج أمام الجثة المتوجة لشارلمان، أحدهما بكل عظمة الإمبراطورية، والآخر بكل عظمة الموت. تغلب الجندي على ظلال العظمة. أصبح الأحياء نهبًا للقيمة غير الحية. استحوذت الكنيسة على الهيكل العظمي، وكرسي بربروسا الرخامي الذي أصبح بعد ذلك عرش تتويج ستة وثلاثين إمبراطورًا، آخرهم فرديناند الأول، سبقه تشارلز الخامس. بعد ذلك توج الأباطرة الألمان في فرانكفورت.

بقيت مذهولًا بقرب هذا الكرسي البسيط للغاية لكن مهيب. حدثت في الدرجات الرخامية التي بصمتها أقدام أولئك القياصرة الستة والثلاثين الذين رأوا انفجار بريقهم هنا، والذين لم يعودوا أحياء جميعًا. انطلقت الأفكار في ذهني، وومضت الذكريات عبر ذاكرتي. قرر فريديريك بربروسا عندما كبر في السن، للمرة الثانية أو الثالثة الانخراط في الحرب المقدسة. وصل في أحد الأيام إلى ضفاف نهر سيدنوس الجميل، وشعر بالدفء فأخذته نزوة الاغتسال. الرجل الذي يمكن أن يدنس قبر شارلمان قد ينسى الإسكندر. دخل النهر فلفه البرد. كان الإسكندر صغيرًا فنجأ، كان بربروسا كبيرًا في السن ففقد حياته.

يبدو لي من المحتمل أنه بين يوم وآخر، سيُغازل الفكر الورع قديسًا أو ملكًا أو إمبراطورًا ما، ليأخذ بقايا شارلمان من المستودع حيث وضعها حافظو غرفة المقدسات، ويجمع كل

ما لا يزال موجودًا من ذلك الهيكل العظمي الجليل، ويضعه مرة أخرى على كرسي العرش. بالتاج الكارلوفينجيانى على الجمجمة، وكرة الإمبراطورية على الذراع، والعباءة الإمبراطورية على العظام.

سيكون هذا مشهدًا جليلاً لمن تجرأ على النظر إلى شبح. ما هي الأفكار التي ستزاحم ذهنه عندما يرى ابن بيبين في ضريحه. من كان يعادل في العظمة أغسطس أو سيسوستريس. الفارس المطوف في الخيال مثل يولاند، والساحر مثل ميرلين. من هو بالنسبة للدين قديس مثل بطرس أو جيروم. وللأسفة، تجسده الحضارة، ويتخذ كل ألف سنة صورة مارد لاجتياز بعض الهاويات العميقة، الحروب الأهلية، والهمجية والثورات، الذي سمى نفسه في وقت ما قيصر ثم شارلمان، وفي وقت آخر نابليون.

في عام 1804، عندما أصبح بونابرت يُعرف باسم نابليون، قام بزيارة آخن. كان لمرافقته جوزفين نزوة للجلوس على هذا الكرسي، لكن نابليون، احترامًا لشارلمان، خلع قبعته وظل واقفًا لبعض الوقت في صمت. الحقيقة التالية رائعة إلى حد ما، وقد صدمتني بقوة: مات شارلمان في عام 814، بعد ذلك بألف عام، وعلى الأرجح في الساعة نفسها تقريبًا، سقط نابليون.

دليلي الذي قدم لي هذه التفاصيل كان جنديًا فرنسيًا قديمًا. حمل بندقيته على أكتافه فيما مضى وتقدم على صوت الطبل. ويحمل الآن مطردًا (سلاح أبيض قديم يتكون من رمح وفأس) أمام رجال الكنيسة في الاحتفالات الكهنوتية. هذا الرجل الذي يتحدث إلى القادمين من أجل شارلمان، نابليون أقرب قلبه. انهمرت الدموع من عينيه عندما تحدث عن المعارك التي خاضها وعن رفاقه القدامى وعن كولونيله. علم أنني فرنسي. قال لي لدى مغادرتي بوقار لن أنساه أبدًا:

"يمكنك أن تقول يا سيدي أنك رأيت في آخن جنديًا قديمًا من الفوج السويسري السادس والثلاثين".

ثم أضاف بعدها بقليل: "يمكنك القول أيضًا إنه ينتمي لثلاث دول، بروسى بالولادة، وسويسري بالمهنة، لكنه فرنسي بكل قلبه".

لدى مغادرتي للكنيسة انغمست في التفكير كثيرًا، لدرجة أنني مررت بواجهة جميلة من القرن الرابع عشر مزينة بتمائيل سبعة أباطرة، أيقظتني من خيالي انفجارات ضحك مفاجئة هربت من اثنين من المسافرين، أكبرهم -كما أخبرني مالك الفندق صباحًا- السيد كونت أ. أحد أنبل عائلات أرتواز.

صرخوا: "ها هنا أسماء. تطلب الأمر ثورة بالتأكيد لتشكيل مثل هذه الأسماء. كابتن لا سوب، والعقيد غرايندورج."

لم أستطع الامتناع عن الرد: "أنا على وشك إخباركم أيها السادة، لماذا توجد مثل هذه الأسماء. كان الكولونيل غرايندورج على صلة بالمارشال دي لورج، والد زوجة دوق سانت سيمون. وبالنسبة للكابتن لاسوب هو على الأرجح يقرب لدوق بويلون، عم المنتخب بالاتين".

بعد لحظات ، كنت في ساحة دار البلدية التي عجلت بزيارتها. تتكون دار البلدية، مثل شابيل، من خمسة أو ستة مبانٍ أخرى. ومن على جانبي واجهة قائمة ذات نوافذ طويلة ضيقة، يرتفع برجان من زمن تشارلز الخامس، أحدهما منخفض واسع، والآخر مرتفع ونحيل ورُباعي الزوايا. البرج الثاني هو بناء رائع من القرن الرابع عشر. الأول هو برج غرانوس الشهير، لكن يصعب تمييزه تحت قبة الكنيسة الغربية التي تتوجه. يشبه هذا البرج الذي هو أصغر من البرج الآخر، هرمًا من عائم عملاقة من جميع الأشكال والأبعاد، موضوعة إحداها فوق الأخرى، ويصغر حجمها مع صعودها نحو القمة. يوجد في الجزء السفلي من الواجهة درج هائل تم تشييده مثل درج شيفال بلونك في فونتنبلو. وفي وسط الساحة توجد نافورة رخامية تعود إلى عصر النهضة، تم ترميمها وإعادة تشكيلها قليلاً في القرن الثامن عشر، يعلوها تمثال برونزي لشارلمان، مسلحًا ومتوجًا. توجد نوافير أخرى أصغر حجمًا يمين ويسرة، تحمل قمتها نسرين أسودين شرسني المظهر، يتجهان نصفياً نحو القبر والإمبراطور الهادئ. ولد شارلمان في هذا الموقع، ربما في هذا البرج الروماني. النافورة والواجهة والأبراج كلها ملكية، وحزينة وصارمة. تضع المجموعة بأكملها شارلمان بشكل واضح أمام عقل المتفرج. تتركز تباينات الهيكل في وحدة قوية. يذكر برج غرانوس بروما، رائدته. الواجهة والنافورات يذكران بتشارلز الخامس، أعظم خلفائه. يستدعي الشكل الشرقي للبرج أفكارًا غامضة عن ذلك الخليفة الرائع، هارون الرشيد، صديقه.

اقترب المساء. قضيت اليوم كله بين هذه الأنصبه التذكارية العظيمة والمتزمتة، لذا رأيت أنه من الضروري التنزه في الحقول لاستنشاق الهواء النقي ومشاهدة أشعة الشمس المتساقطة. تجولت على طول بعض الجدران المتداعية، ودخلت حقلاً، ثم بعض الأزقة الجميلة، حيث اختليت بنفسى. امتدت آخن أمامى، مختبئة جزئياً في ظلال المساء التي كانت تتساقط من حولها، وانتشر الضباب بتدرج فوق أسطح المنازل، وغطى أبراج المدينة.

لم يكن هناك ما هو مرئي سوى كتلتين ضخمتين، دار البلدية والكنيسة. تراحمني الآن جميع العواطف والأفكار والرؤى التي كانت تدور في ذهني خلال النهار. أول الكتلتين المظلمتين بالنسبة لي كان مكان ولادة طفل، والثاني هو مثنوى العظمة. تخيلت في خضم تصوراتي أنني رأيت ظل هذا العملاق الذي نسميه شارلمان، يتطور بين هذا المهد العظيم والضريح الأعظم.

الفصل العاشر

كولونيا. -ضفاف نهر الراين. -آندرناخ. ديوز. - كاتدرائية كولونيا. - الريفيون. - الموسيقى المتجول. - شخصيات الآلهة قولو، وغلوتون، وجونيفر، وغوليف. - قبة كاتدرائية كولونيا. - مرثية. - قبر حكماء الشرق الثلاثة. -القدر. - دار البلدية. - ثلاثة نقوش بارزة. - شاعر كولونيا الملحمي - كولونيا في الليل. - الزمن وآثاره.

أنا غاضب من نفسي يا صديقي العزيز، لأنني مررت بكولونيا مثل بربري. لم أمض هناك سوى ثماني وأربعين ساعة، في حين كان باستطاعتي أن أقضي أسبوعين. لكن بعد أسبوع كامل من الضباب والمطر، سطعت الشمس ببراعة على نهر الراين لدرجة أنني قررت الاستفادة من الطقس الرائع ومشاهدة النهر بكامل مجده وبهجته. لذا انطلقت من كولونيا هذا الصباح بواسطة الباخرة كوكريل. تركت مدينة أغريبا وراني دون رؤية أيٍّ من الصور القديمة للكنيسة ماريا في مبنى الكابيتول، ولا الرصيف الفسيفسائي في سرداب القديس جيرون، ولا صلب القديس بطرس الذي رسمه روبنز للكنيسة نصف الرومانية القديمة حيث تعمد القديس بطرس، ولا عظام أحد عشر ألف عذراء في دير أورسولين، ولا جسد الشهيد ألبينوس الذي لا يتعفن أبدًا، ولا التابوت الفضي للقديس كونيبرت، ولا قبر دانز سكوطس في كنيسة الأقليات، ولا قبر الإمبراطورة

ثيوفانيا زوجة أوتو، في كنيسة القديس بانتاليون، ولا سرداب الأم في كنيسة القديس ليسولفوس، ولا الغرفتين الذهبيتين للقديسة أورسولا ولا القبة، ولا قاعة طعام الإمبراطورية، التي هي مستودع تجاري اليوم، ولا الترسانة القديمة، وهي مستودع الذرة اليوم. لم أر شيئاً من كل هذا: شيء منافع للعقل، لكنها الحقيقية.

إذن، ما الذي زرت في كولونيا؟ الكاتدرائية ومبنى البلدية، لا شيء آخر. لمدينة رائعة فقط ككولونيا يمكن أن يقال: "لا تحتاج إلا لرؤيتيها لفهم جوهرها" لأن كليهما صرح نادر ورائع. وصلت كولونيا بعد غروب الشمس. وفوراً وجهت خطواتي نحو الكاتدرائية، بعد أن سلمت حقيبتى لأحد الحمالين الذين يرتدون الزي الأزرق ذا الياقة البرتقالية، ويخدمون في هذا البلد ملك بروسيا. عملهم ممتاز ومربح. أؤكد لك أن المسافر يخضع للضريبة بشكل كامل، ويتقاسم العتال والملك الغنيمة بينهما. أذكر هنا تفصيلاً جديراً بالملاحظة: أمرت صديقي الحمال الفاضل قبل مغادرتي -وسط دهشته- أن يحمل أمتعتي ليس إلى فندق في كولونيا ولكن إلى فندق في دوز، وهي بلدة صغيرة في الجانب الآخر من نهر الراين، تتصل بكولونيا بواسطة جسر من القوارب. وهذا هو سببي: عندما أضطر إلى الإقامة في نزل لعدة أيام، أختار قدر الإمكان النوافذ التي تطل على مناظر طبيعية معينة. الآن، تطل نوافذ كولونيا على دوز، وتطل نوافذ دوز على كولونيا. وهكذا أخذت مسكني في دوز، مسترشداً بهذا المبدأ الذي لا جدال فيه: من الأفضل العيش في دوز ورؤية كولونيا من العيش في كولونيا ورؤية دوز.

حالما صرت وحيداً، تمشيت بحثاً عن قبة، متوقعاً أن أراها لدى كل ركن من أركان الشارع. لكنني لم أكن أعرف كم هي معقدة هذه المدينة. حل الليل ونما الظلام بوضوح في الشوارع الضيقة. لست مغرمًا بالسؤال عن طريقي، لذا تجولت لفترة طويلة بشكل عشوائي. بعد أن تجولت حول بوابة من نوع ما، تنتهي بممر على اليسار، وجدت نفسي أخيراً في ساحة كبيرة مفتوحة، كانت مظلمة تماماً ومنعزلة، فجأة قدّم مشهد رائع نفسه الآن. ارتفعت أمامي في ضوء الشفق الرائع، في وسط مجموعة من المنازل المنخفضة، كتلة سوداء هائلة مزينة بالأبراج وأبراج الأجراس. كان هناك آخر أبعد قليلاً، ليس واسعاً تماماً كالأول، لكنه أعلى. نوع من القلعة المربعة، تحيط بزواياها أربعة أبراج طويلة منفصلة، على قممها شيء يشبه الريشة الضخمة. اكتشفت لدى اقترابي أنها كاتدرائية كولونيا.

ما بدا وكأنه ريشة كبيرة كان عبارة عن رافعة، تم إلحاقها بصفائح من الرصاص، ويشير مظهرها العملي للمارة أن هذا المعبد غير المكتمل قد يكتمل يوماً ما. قد يكون حلم إنجلترا بيرج الذي تحقق في عهد كونراد هوشستين، خلال حقبة أو حقبتين، أعظم كاتدرائية في العالم. ترى هذه الإلياذة غير المكتملة هوميروس في المستقبل.

أغلقت الكنيسة. تفحصت الأبراج، وذهلت من أبعادها، ومنتوءات دعامات الأبراج. رغم اكتمال الطابق الأول فقط، إلا أن المبنى يصل بالفعل إلى ارتفاع أبراج نوتردام في باريس. إذا تم وضع القمة، وفقًا للخطة، على هذا الجذع الضخم، فستكون ستراسبورغ صغيرة نسبيًا بجانبها. لطالما أذهلني ألا شيء يشبه الخراب أكثر من صرح غير مكتمل. حوصرت هذه الحوائط الجليلة بكاسرات الحجر والمتسلقات البرية والقراص وجميع الأعشاب التي تتجذر في الشقوق وفي أساس المباني القديمة. لا يبني الإنسان إلا ما تدمره الطبيعة مع الوقت.

كل شيء ساكن. لم يكن من أحد هناك لكسر الصمت المسيطر. اقتربت من الواجهة، بأقرب ما تسمح لي البوابة، وسمعت عددًا لا يحصى من الشجيرات تخشخش بلطف في نسيم الليل. أتى ضوء من نافذة مجاورة وألقى بأشعته على مجموعة من التماثيل الرائعة، ملائكة وقديسين، يقرأون أو يعظون، أمامهم كتاب كبير مفتوح. مقدمة مثيرة للإعجاب لكنيسة ما هي إلا كلمة مصنوعة من الرخام أو النحاس أو الحجر. أقام السنونو مسكنه هنا بلا خوف، ويتناقض بناؤه البسيط الطريف بشكل غريب مع الهندسة المعمارية للمبنى.

كانت هذه زيارتي الأولى إلى كاتدرائية كولونيا.

لم أخبركم شيئًا عن الطريق الفاصل بينها وبين آخن. في الواقع، القليل جدًا يمكن أن يقال: سهل أخضر مع بلوط متباعد وبعض أشجار الحور، وحدهم على مستوى النظر. في القرى، تتجول الفلاحات العجائز مغطيات بالعباءات الطويلة مثل الأشباح، بينما تجلس الشابات بتنوراتهن القصيرة على ركبهن يغسلن عتبات الأبواب. أما الرجال، فيتزينون بأثوابهم الزرقاء وقبعاتهم العالية، وكأنهم قرويو ريف دستوري.

نادرا ما يُشاهد شخص ما على الطريق. ربما بسبب سوء الطقس. مر عازف متنقل فقير، يحمل عصا في يده، وبوقًا في اليد الأخرى. يرتدي معطفا أزرق، وصدرية فاخرة، وبنطلونًا أبيض قيعانه مرفوعة مع حد البوت الذي يرتديه. تم تجهيز الشيطان المسكين من الركبتين إلى أعلى، ليلائم حفلًا راقصًا. مع ذلك، كانت أطرافه السفلية أكثر ملاءمة للطريق. أعجبت في ساحة قرية صغيرة، أمام نزل، بأربعة مسافرين مبتهجين يجلسون أمام طاولة مليئة باللحم والأسماك والنبيد. أحدهم يشرب، والثاني يقطع، والثالث يأكل، والرابع يلتهم، مثل أربعة تجسيدات للنهم والشراسة. بدا لي كما لو أنني رأيت الآلهة غولو، وغلوتون، وغونيفر، وغوليايف جالسين حول جبل من الطعام.

النزل ممتازة في هذا البلد، ويعتبر نزل (الإمبراطور) الذي أقمت فيه في آخن استثناءً. كان مقبولًا فقط لإبقائي دافئًا، كانت لدي سجادة رائعة في غرفتي، مرسومة على الأرض. ربما كانت هذه السجادة بمثابة ذريعة للرسوم الباهظة للنزل المذكور.

لإنهاء حديثي عن آخن، يجب أن أخبرك أنَّ القرصنة في حالة ازدهار في بلجيكا. وجدت نفسي في شارع رئيسي مفتوح في قاعة المدينة معروضًا في لوح زجاجي جنبًا إلى جنب مع صديقي اللامع والعزيز لامارتين. كانت الصورة المقرصنة التي نفذتها إعادة الطبع البروسي أقل بشاعة إلى حد ما من كل هذه الرسوم الكاريكاتورية الرهيبة التي يبيعها القيمون على الأكشاك وبائعو الكتب لجمهور ساذج وخائف على أنها صورتني المتقنة. هذا الاقتراء البغيض الذي أحتج عليه رسميًا هنا "أشهد النجوم والسماء على هذا".

أعيش مثل ألماني حقيقي. أتناول العشاء مع مناديل مائدة بحجم مناديل الجيب، وأنام في ملاءات بحجم المناديل. أكل الكرز مع لحم الضأن، والخوخ مع الأرنب، وأشرب نبيذ الراين الممتاز، والموزيل، كما نطقها رجل فرنسي بارع، تناول الطعام بالقرب مني بالأمس، فان دي ديموازيل بدلاً من فين دي موسيل. صاغ الفرنسي نفسه بعد شرب كأس من الماء، هذه البداهة: "مياه نهر الراين أدنى من نبيذ الراين".

سمعت بالأمس مسافري الفرنسي يسأل النادل، مشيرًا إلى الطبق المقدم: لا يتحدث المضيفون ولا النادل ولا خادمتا الغرف في النزل سوى اللغة الألمانية، كقاعدة عامة. لكن هناك دائمًا نادل واحد يتحدث الفرنسية، وهو فرنسي بالفعل. مصبوغ إلى حد ما بالبيئة التيوتونية التي غرق فيها، لكن لا يخلو هذا التنوع من سحر. سمعت بالأمس مسافري الفرنسي يسأل النادل، مشيرًا إلى الطبق المقدم: "ما هذا؟" أجاب النادل بكرامة، "نوع من الكلاب". كان حمامًا.

علاوة على ذلك، فالفرنسي الذي لا يعرف اللغة الألمانية مثلي، كان يضيع وقته في مخاطبة "رئيس النذل" في أي مواضيع باستثناء تلك التي توجد حولها أسئلة في دليل المسافر. إنه مطلي بالفرنسية فقط، احفر قليلا وستجد الألماني، ألماني نقي، ألماني أصم، تحت السطح.

إنها زيارتي الثانية لقبة كولونيا. عدت إليها في الصباح. اتصلت تحفة الكنائس هذه بقاعة مسور. كنت محاصرًا هناك بالمتسولات. وبينما كنت أتخلص منهن تذكرت حقيقة أنه قبل الاحتلال الفرنسي كان هناك اثنا عشر ألفًا من المتسولين في كولونيا، والذين حظوا بامتياز نقل المواقع المحددة والخاصة التي يشغلها كل منهم لأبنائهم. اختفت هذه المؤسسة. الأرستقراطية آخذة في الاختفاء. لا يُكنّ عصرنا سوى القليل من الاحترام للفقراء بالوراثة كما هو الحال مع أقرانهم بالوراثة. لم يعد لدى المتسولين أي شيء يتركونه لعائلاتهم.

دخلت الكنيسة بعد أن تخلصت من المتسولين. ظهرت أمامي غابة من الدعامات والأعمدة، بقواعدها المحمية بواسطة حواجز خشبية، اختفت في الأعلى في سقالات من قنب متداخلة، مبنية من ألواح خشبية، متنوعة في الانحناءات والارتفاعات. هناك القليل من الضوء في المبنى، لأن كل هذه الأقواس المنخفضة لا تسمح للعين بالارتفاع أكثر من أربعين قدمًا. يوجد على اليسار أربع أو خمس نوافذ مضاءة ببراعة، تنحدر من السقف الخشبي إلى الرصيف الحجري، مثل

صفائح عريضة من التوباز والزمرد والياقوت. يوجد على اليمين سلالم وبكرات وحبال ورافعات ومجارف ومربعات. في الطرف الأبعد، الترنيم البسيط، الأصوات الجليلة للمنشدين والكهنة، اختلطت اللاتينية الجميلة للمزامير، والعائمة عبر القبو بسحب البخور، ينوح الأرغن بحلاوة لا توصف. ومع كل هذا، فإن صرير المناشير، وأنين السواعد، والضوضاء المذهلة للمطارق على الألواح، شكلت الصورة الكاملة لانطباعاتي عن قبة كولونيا.

هذه الكاتدرائية القوطية المتزوجة من متجر نجار، هذه الكنيسة النبيلة التي تزوجها بوحشية بناءً حجري، أجبرت هذه السيدة العظيمة على ربط حياتها المهيبية والجليلة، وترانيمها وصلواتها وتأملاتها، مع هذا الضجيج، مع اللغة الفظيعة والبذينة لهؤلاء العمال. ينتج عن هذا الزواج غير اللائق للوهلة الأولى انطباع غريب. لكننا ما عدنا نرى بناء الكاتدرائيات القوطية، فهذا يتلاشى بمجرد أن نبدأ في اعتباره أنه بعد كل شيء لا يوجد شيء أكثر بساطة. لرافعة البرج معنى، فهي تدل على استئناف العمل الذي توقف عام 1499. كل هذا الضجيج من النجارين وقاطعي الحجارة ضروري. إن كاتدرائية كولونيا مستمرة، وأرجو من الله أن تكتمل. لا شيء يمكن أن يكون أفضل من هذا الإنجاز، إن كانوا فقط يعرفون كيفية تحقيقه.

تحدد هذه الأعمدة التي تدعم الأقواس الخشبية مخطط المحور الذي سيربط، يومًا ما، القوس بالبرج.

تفحصت نوافذ هذا الصرح الرائع، والتي تعود إلى زمن ماكسيميليان، والمطلية بكل إسراف عصر النهضة الألمانية. على إحداها تصوير لأصل العذراء القديسة. يرقد في أسفل الصورة آدم على ظهره بزي الإمبراطور. تنمو من بطنه شجرة كبيرة تملأ اللوح كله، ويظهر على الأغصان جميع أسلاف مريم المتوجون، يعزف ديفيد على القيثارة، يفكر سليمان بعمق، وتتفتح في أعلى الشجرة زهرة وتكشف عن العذراء وهي تحمل الطفل يسوع.

على بعد خطوات قليلة، قرأت هذه المرثية التي تتنفس حزنًا واستسلامًا: -

Inclitvs ante fvi comes emvncivs,
Vocitavt, hie dece prostratvs, sub
Tegor vt volvi. Frishem, sancte,
Mevm fero, petre, tibi eomitatvm
Et mihi redde statvm, te precor,
Etherevm Hsec. Lapidvm massa
Comitis complectitvr ossa.

دونت هذه المرثية تمامًا كما هي. نُقشت على لوح عمودي من الحجر كنثر، دون أي إشارة إلى السداسيات البربرية والتفاعيل الخماسية التي تشكل كل دوبيت. يحتوي مقطع القافية الختامية

على قدر من الخداع، كتلة، ما أثار دهشتي، بالنسبة لرجال بإمكانهم كتابة مقاطع لاتينية في العصور الوسطى.

حدد الممر الأيسر لجناح الكنيسة فقط حتى الآن، وينتهي في مصلى واسع، بارد، قبيح ومؤثث بشكل سيئ، حيث يوجد عدد قليل من كراسي الاعتراف. سارعت بالعودة إلى الكنيسة. لفقت انتباهي لدى مغادرة المصلى ثلاثة أشياء في الوقت نفسه تقريباً: على يساري، منبر صغير ساحر من القرن السادس عشر، مصمم بذكاء ومنحوت بدقة شديدة من خشب البلوط الأسود. وعلى بعد منه الدرايزين الحديدي للجوقة، وهو مثال نادر ومثالي للأعمال الحديدية الرائعة في القرن الخامس عشر. أمامي، رواق جميل للغاية به أعمدة سمكية وأقواس منخفضة، على طراز المحفظة الخاصة بعصر النهضة. أتخيل أنها بنيت من أجل ملكتنا الهاربة التعيسة ماري دي ميديسيس.

عند مدخل الجوقة، في الضريح الروكوكي الأنيق، أبهرت العين مادونا الإيطالية الأصلية، المليئة باللمعان والبهرج بالإضافة للطفل الصغير. وضع تحت هذا المادونا الثرية بأساور وقلائد من اللؤلؤ، كنقيض ربما، صندوق ضخم للفقراء، صمم بعد القرن الثاني عشر، مزين بسلاسل وأقفال نصف غارقة في كتلة منحوتة بخشونة من الغرانيت. يبدو وكأنه كتلة من الخشب تم إدخالها في الأرضية المرصوفة.

عندما رفعت عيني، رأيت بعض العصي المذهبة مربوطة بقضيب من الحديد المستعرض ومعلقة من الغطاس فوق رأسي. بجانب العصي كان هذا النقش: "Quot pendere vides .baculos, tot episcopus annos huic Agrippinai praefuit ecclesise". تعجبني هذه الطريقة الصارمة في تقدير السنوات، وإظهار الوقت الذي استخدمه أو ضيعه رئيس الأساقفة على الدوام. تتدلى في الوقت الحاضر ثلاث عصي من القبو.

يقع جزء الجوقة في الجزء الداخلي من هذا المحراب الشهير، والذي يشكل حالياً، إذا جاز التعبير، كاتدرائية كولونيا بأكملها، لأنَّ البرج تنقصه القمة، ولم يكن للكنيسة بعد صحن أو جناح. جزء الجوقة رائع حقاً. توجد غرفة للمقدسات مليئة بالأعمال الخشبية الدقيقة، ومعابد مليئة بالنحت المتشدد، صور من مختلف العصور، وأضرحة بجميع الأشكال: أساقفة من الغرانيت يستريحون في حصن، أساقفة من حجر الشست يستريحون على أحشية يرفعها موكب من الملائكة المنتحبة، أساقفة من الرخام ينامون تحت شبكة من الحديد، أساقفة من البرونز مستلقون على الأرض، أساقفة من الخشب راكعون أمام المذابح، ضباط من زمن لويس السادس عشر يتكئون بمرافقهم على أضرحتهم، الفرسان الصليبيون مع كلابهم يميلون بحب تجاه كعوبهم المدرعة، تماثيل رسل يرتدون ثياب ذهبية، كراسي اعتراف البلوطية ذات الأعمدة الملطوية، الحجيرات النبيلة لملابس الأساقفة، وعاء مياه المعمودية على شكل ناووس، حجارة مذبح محملة

بتمثيل صغيرة، شظايا من الزجاج الملون، تبشير من القرن الخامس عشر على أرضية ذهبية بأجنحة غنية متعددة الألوان في الأعلى وأجنحة بيضاء في الأسفل، تنتمي إلى الملائكة الذين يبدو أنهم ينظرون إلى العذراء بتعبير جريء إلى حد ما، الأبسطة الحائطية المصنوعة وفقاً لتصميمات روبنز، عمل حديدي يبدو كما لو أنه جاء من كوينتين ماتيسيس، وخزائن ذات مصاريع مطلية ومذهبة ربما كان من صنع فرانك فلوريس.

يوسفني القول إن كل هذا في حالة محطمة بشكل مخجل. إذا شارك شخص ما في إكمال الكاتدرائية من الخارج، فإن شخصاً آخر يبذل كل ما في وسعه لتدميرها داخلياً. لا يوجد قبر لم يدمر أو تشوه أشكاله، وليس هناك من درابزين حديدي لا يظهر عليه الصدأ في مكان التذهيب. الغبار والقذارة في كل مكان. يهين الذباب الوجه الموقر لرئيس الأساقفة فيليب من هاينزبرغ، والرجل البرونزي الذي يستريح على الحجر اللوحي -كونراد هوشستين، الذي كان من المقرر أن يبني الكاتدرائية- لا يمكنه كسر خيوط العنكبوت التي تربطه اليوم، مثل جاليفر آخر، تحت خيوطها التي لا حصر لها. واحسرتاه، أذرع البرونز ليست قوية كأذرع اللحم.

أميل إلى الاعتقاد أن تمثال الرجل العجوز الملتحي الذي رأيته ملقى في زاوية غامضة، مكسوراً ومشوهاً، هو تمثال مايكل أنجلو. ما ذكرني أنه في آخن كان أمامي مشهد لتلك الأعمدة الشهيرة من الرخام العتيق التي أخذها نابليون واستعادها بليشر، كانت تستلقي في زاوية دير الدفن القديمة، مثل جذوع الأشجار التي تنتظر منشاراً. أخذها نابليون لوضعها في متحف اللوفر. أعادها بليشر ليضعها في قبو للجنث.

من بين الأسئلة التي أطرحها على نفسي في أغلب الأحيان "من المسؤول؟" لم أر وسط كل هذا التدهور سوى مقبرتين محترمتين إلى حد ما وأحياناً كانتا مغبرتين -القبر التذكاري لكونتات شاوينبيرغ. يبدو أن كونتات شاوينبورغ يشكلون أحد الأزواج الذين توقعهم فيرجيل. كانا شقيقين، وكلاهما رئيساً لأساقفة كولونيا، ودخل كلاهما الجوقة نفسها، ولكليهما أضرحة رائعة من القرن السابع عشر أقيمت قبالة بعضها البعض. يمكن لأدولفوس التحديق في أخيه أنتوني.

سوف أذكر الآن الهيكل الأكثر احتراماً الذي تحتويه هذه الكنيسة، الضريح الشهير لحكام الشرق الثلاثة.

الغرفة من الرخام وهي كبيرة نوعاً ما، وتمثل طراز لويس الثالث عشر، ولويس الرابع عشر. نرى لدى النظر للأعلى نقشاً بارزاً يوضح توقيير الملوك الثلاثة، وتحتة الكتابة التالية:

Corpora sanctorum recubant hie tema magorum.

Ex his sublatum nihil est alibive locatum.

هذا إذن هو مثنوى ملوك الشرق الشاعريين الثلاثة. في الواقع، لا توجد أسطورة تسعدني أكثر من "ألف ليلة وليلة". اقتربت من الضريح، ورأيت في الظل مستودعاً ضخماً يلعب باللالئ والألماس والأحجار الكريمة الأخرى، والذي يبدو أنه يربط تاريخ هؤلاء الملوك الثلاثة، جاءوا

من الشرق. توجد أمام القبر ثلاثة مصابيح، أحدها يحمل اسم غاسبر، والثاني ملكيور، والثالث بلتازار. إنها فكرة حازقة أن يكون لديك - بطريقة ما - أسماء الحكماء الثلاثة أمام الضريح. لدى مغادرتي اخترق شيء ما نعل حذائي. نظرت نحو أسفل ووجدت مسمارًا كبيرًا يبرز من مربع من الرخام الأسود، كنت أسير عليه. تذكرت بعد فحص الحجر أنَّ ماري دي ميديسي كانت ترغب في وضع قلبها تحت رصيف كاتدرائية كولونيا، وأمام ضريح الملوك الثلاثة. ما كان في السابق عبارة عن صفيحة من البرونز أو النحاس الأصفر مع نقش عليها، عندما استولى الفرنسيون على كولونيا، استولى عليه بعض الثوريين، أو ربما نحاس جشع، كما فعلها العديد من قبل. تشير مجموعة المسامير النحاسية المنبتقة من الرخام إلى نهب ذي طبيعة مماثلة. واحسرتاه، ملكة بائسة. في البداية رأت نفسها ممحوة من قلب ابنها لويس الثالث عشر، ثم من ذاكرة صنيعتها "ريشيليو" مخلوقها، والآن محيت من على الأرض.

ما أغرب نزوات القدر. ماري دي ميديسي، أرملة هنري الرابع المنفية والمهجورة، لديها ابنة، "هنريتا" أرملة تشارلز الأول، التي توفيت في كولونيا عام 1642، في المنزل الذي ولد فيه رسامها روبينز، قبل 65 عامًا.

بدت لي قبة كولونيا عندما رأيتها في النهار وكأنها فقدت القليل من سموها. لم يعد لديه ما أسميه "عظمة الشفق". يضيء المساء الضخامة على الأشياء. الخط جميل دائمًا، لكن هناك جفاف معين في اللحمية الشخصية. ربما ينشأ هذا من نوع الغضب الذي بدأ به المهندس المعماري الحالي في إعادة تنميق واستعادة هذا المحراب الموقر. عندما يتم إصلاح الكنائس القديمة، من الأفضل عدم محاولة جعل كل شيء جديدًا. بعد مثل هذا العملية، تميل محاولة إخراج الخطوط إلى تقليل قوتها، ويختفي غموضها الضبابي بالكامل. كما هو الحال الآن، أفضل البرج نصف النهائي على المحراب المكتمل. على كل ومع كل الاحترام الواجب لآراء الدقيقين الذين يريدوننا أن نعتقد أن قبة كولونيا هي بارثينون العمارة المسيحية، لا أرى أي سبب لتفضيل هذا المخطط للكاتدرائية على كاتدرائياتنا القديمة المكتملة في أميان وريمس وشارتر وباريس. ويجب أن أقول إن كاتدرائية بوفيه غير المشهورة، ليست أقل شأنًا، سواء من حيث الحجم أو التفاصيل، من كاتدرائية كولونيا.

تقع دار البلدية بالقرب من الكاتدرائية، وهي أحد تلك الصروح الفريدة التي تم بناؤها في أوقات مختلفة، والتي تتكون من جميع أنماط العمارة التي شوهدت في المباني القديمة. إن الطريقة التي بنيت بها هذه الصروح تشكل دراسة مثيرة للاهتمام نوعًا ما. لا شيء عادي، لم توضع خطة ثابتة، بُني كل شيء حسب الضرورة المطلوبة.

كان دار البلدية الذي يحتوي ربما على بعض الكهوف الرومانية بالقرب من أساساته، في عام 1250، مجرد هيكل مشابه لهيكل صروحنا المبنية بأعمدة. كان من الضروري وجود برج

للكنيسة من أجل راحة الحارس الليلي، كما من أجل إطلاق الإنذار. بني البرج في القرن الرابع عشر. وانتشر ذوق الهياكل الراقية في كل مكان في عهد ماكسيميليان، واعتبر أساقفة كولونيا أنه من الضروري أن يرتدي مجلس المدينة ثياباً جديدة، انضم للعمل مهندس معماري إيطالي، غالباً، تلميذ مايكل أنجيلو، ونحات فرنسي قام بتعديل الواجهة الداكنة في القرن الثالث عشر إلى شرفة انتصارية مهيبية.

انقضت بضع سنوات، ووقفوا بحزن في حاجة إلى متنزه بجانب قلم المحكمة. بني الفناء الخلفي، والأروقة التي تم إحيائها بفخامة من خلال شعارات النبالة والنقوش البارزة. كان من دواعي سروري أن أراها. لكن في غضون بضع سنوات لن يحصل أي شخص على نفس السرور، لأنه وبدون وجود ما يمنع، فإنهم يتعرضون بسرعة للخراب. أخيراً، في عهد تشارلز الخامس، كانت هناك حاجة إلى غرفة كبيرة لمزادات وتجمعات المواطنين، وتمت إضافة مبنى حسن الذوق من الحجر والطوب. وهكذا، فإن هيكل القرن الثالث عشر، وبرج جرس القرن الرابع عشر، والرواق والفناء الخلفي من زمن ماكسيميليان، وقاعة شارل الخامس، اتصلوا معاً بطريقة مبتكرة ومرضية، مشكلين دار بلدية كولونيا.

صعدت إلى برج الجرس. وتحت السماء قاتمة التي تنسجم مع الصرح ومع أفكاره، رأيت عند قدمي المدينة الرائعة بأكملها.

كولونيا على نهر الراين، مثل كوين على نهر السين، ومثل أنتويرب على نهر شيلد، ومثل جميع المدن الواقعة على مجاري مائية واسعة جداً بحيث لا يمكن عبورها بسهولة، لها شكل قوس منحنى، ويشكل النهر الوتر.

الأسقف مائلة ومزدحمة معاً، ومديبة مثل بطاقات طويت على اثنين. الشوارع ضيقة، الجملونات منحوتة. حدود جدران ضاربة إلى الحمرة، ترتفع من جميع الجهات فوق الأسطح، وتنتشر في المدينة مثل طوق ملتوي حتى النهر، من برج ثورمشن وحتى برج باينثورم المجيد، والذي يرتفع من أسواره أسقف رخامي مباركاً نهر الراين. تعرض المدينة بين هاتين النقطتين، وعلى طول ضفة النهر، مجموعة كاملة من النوافذ والواجهات. في منتصف هذا التجمع الطويل، يوجد جسر من القوارب ينحني برشاقة لمقابلة التيار، ويعبر النهر -هنا، على أوسع نطاق- ويذهب لربط كومة المباني الشاسعة التي تشكل كولونيا بمجموعة صغيرة من البيوت البيضاء التي تشكل ديورز.

في قلب مدينة كولونيا، ووسط الأسطح والأبراج والعليات المليئة بالزهور، ترتفع قمم متنوعة لسبعة وعشرين كنيسة، من بينها أربع كنائس رومانية مهيبية (الكاتدرائية لا تحتسب)، وكلها ذات تصميم مختلفة، تستحق بحجمها وجمالها أن تكون كاتدرائيات. القديس مارتن في الشمال، القديس

جبرون في الغرب، والرسل المقدسون من الجنوب. القديسة الكابيتول مريم من الشرق. إنهم يشكلون غابة من القباب والقلاع والأبراج.

إذا درسنا تفاصيل المدينة، نجد أن كل شيء نشط، كل شيء حيوي. الجسر مزدحم بالركاب والمركبات، النهر مغطى بالمراكب الشراعية. تعانق كتل من الأشجار هنا وهناك، سواد البيوت الذي يحدث بمرور الوقت، والفنادق الحجرية القديمة من القرن الخامس عشر، بإفريزها الطويل من الزهور المنحوتة والفاكهة والأوراق، والتي تستقر عليها الحمامة عندما تتعب، والتي تخفف من رتابة الأسطح الصخرية والواجهات الحجرية التي تحيط بها.

يحيط بهذه المدينة العظيمة -التجارية بصناعتها، والعسكرية بموقعها، والبحرية بنهرها- سهل شاسع على حدود ألمانيا، يعبره الراين في أماكن مختلفة، والذي يتوجه من الشمال الشرقي هذا الوكر الرائع من الأساطير والتقاليد والذي يسمى "الجلال السبعة". وهكذا فإن هولندا وتجارها، وألمانيا وشعرها، واللذان تمثلان الجانبين العظيمين للعقل البشري، الحقيقي والخيالي، تلقيان بنورهما على أفق مدينة كولونيا، مدينة العمل والتأمل.

توقفت في الفناء، بعد النزول من برج الجرس أمام رواق جميل من عصر النهضة. تتكون قاعته الثانية من سلسلة من أقواس النصر الصغيرة، مع نقوش. الأولى مخصصة لقيصر، والثانية لأغسطس، والثالثة لأغريبا، مؤسس مدينة كولونيا، والرابعة لقسطنطين، الإمبراطور المسيحي، والخامسة لجوستين المشرع العظيم، والسادسة لماكسيميليان. على الواجهة، طارد النحات الشعري ثلاثة نقوش بارزة، تمثل محاربي الأسود الثلاثة، ميلو كروتونا، وبيبين القصير ودانيال. وضع على أحد الطرفين ميلو من كروتونا يهاجم الأسود بقوة الجسد، ودانيال يقهر الأسود بقوة العقل، وبينهما يقهر بيبين القصير خصمه الشرس بمزيج من القوة المعنوية والبدنية التي تميز الجندي. ما بين القوة الخالصة والفكر الخالص هي الشجاعة. ما بين الرياضي والنبى هو البطل. يحمل بيبين سيفًا في يده، ويغرز ذراعه اليسرى المغلفة بعباءته، في فم الأسد. يقف الحيوان بمخالبه الممتدة، بتلك الطريقة التي تمثل الأسد الهائج في شعارات النبالة. يهاجمه بيبين بشجاعة ويهزمه. يقف دانيال بلا حراك وذراعه بجانبه، وعينه مرفوعة نحو السماء، والأسود تتدحرج بلطف عند قدميه. أما ميلو من كروتونا فهو يدافع عن نفسه ضد الأسد الذي يُلتهمه. وضع حدثه الأعمى ثقة كبيرة في العضلات والقوة الجسدية. تحتوي هذه النقوش البارزة الثلاثة على عالم من المعنى، ينتج الأخير تأثيرًا قويًا. إنها الطبيعة تنتقم لنفسها من رجل إيمانه الوحيد هو القوة الوحشية.

عندما كنت على وشك مغادرة مجلس المدينة، هذا المبنى الفسيح، هذا المسكن الغني بالتقاليد الأسطورية وكذلك بالحقائق التاريخية، عبر الفناء رجل تبدو هيئته أكبر مما كان عليه في الواقع، معوج في مزاجه أكثر من تأثير العمر عليه. قال الشخص الذي أوصلني إلى برج

الجرس، في إشارة إليه: "هذا الرجل شاعر، وقد ألف عدة ملاحم ضد نابليون، وضد ثورة 1830، وضد الفرنسيين. وآخرها، تحفته الفنية حين التمس من مهندس معماري إنهاء كنيسة كولونيا بنفس أسلوب بانثيون باريس".

ملاحم! موهوب! مع ذلك، فإن هذا الرجل، أو هذا الشاعر، هو أكثر الحيوانات قذارة التي وقعت عليها عيني من قبل، ولا أعتقد أن لدينا أي شيء في فرنسا يمكن مقارنته بشاعر كولونيا الملحمي. للتعويض عن الرأي الذي شكله هذا الحيوان الغريب عن الفرنسيين، خرج رجل عجوز صغير الحجم، ذو عين خاطفة، من محل حلاقة، في أحد الشوارع المظلمة والغامضة - لا أعرف أيهم - وخمن من أين أنا من خلال مذهري، أتى إلي صارخاً:

"Monsieur, monsieur, fous, Français ! oh, les Français ! ran ! plan ! plan plan ! ran, tan, plan ! la guerre a toute le monde ! Prafes Prafes ! Napoléon, n'est-ce pas ? La querre a toute L'Europe ! Oh, les Français, pien Prafes, monsieur. La paionette au qui k tons ces Priciens, eine ponnea quilpите gomme a lena. Prafo les Francais ! ran ! plan ! plan".

يجب أن أعترف أن هذا الحديث أسعدني. فرنسا عظيمة في ذكريات هؤلاء الناس وفي آمالهم. كل شيء على ضفاف نهر الراين يحبنا. كدت أقول، انتظرونا.

تمشيت مساءً، عندما كانت النجوم تتألق، على جانب النهر المقابل لكولونيا. أمامي المدينة بأكملها، مع عدد لا يحصى من الأبراج بتفاصيلها الواضحة تعلو في السماء الغربية الباهتة. ينهض على يساري، مثل عملاق كولوني، برج سانت مارتن العالي، مع قمته، وأمامه تقريباً محراب الكاتدرائية الكنيية، بأبراجها العديدة المدببة، التي تشبه القنفذ الوحشي، والرافعة تشكل الذيل، وبالقرب من القاعدة مصباحان يبدوان مثل عينيّن تتألقان بالنار. لا شيء يزعج سكون الليل سوى حفيف المياه عند قدمي، ووقع الحوافر الثقيل لحصان على الجسر، وصوت مطرقة حداد. تسبب تيار طويل من النار انبعث بسبب طرق الحديد، في تألق النوافذ المجاورة. وكما لو كان مسرعاً نحو عنصره المضاد، اختفى في الماء.

اتخذت أفكارني منعطفاً مقبضاً بسبب هذا الاستغراق الكبير والكئيب، وفي نوع من التخيل قلت لنفسني: "اختفت مدينة جرمين، ولم تعد مدينة أغريبا موجودة، لكن مدينة سانت إنجلبرت لا تزال قائمة". كم سيستغرقها من وقت؟ منذ أكثر من ألف عام، أصبح المعبد الذي بنته القديسة هيلينا خراباً، والكنيسة التي بناها رئيس الأساقفة أنو تتحلل بسرعة. تهدمت كولونيا بسبب نهرها. بالكاد يمر يوم دون أن تنفصل بعض الأحجار القديمة، وبعض الآثار المقدسة، بسبب هياج القوارب البخارية. لا يمكن لمدينة تقع على الشريان النهري العظيم لأوروبا أن تفلت من العقاب. رغم أن

كولونيا ليست قديمة مثل ترير أو سولوتورن، لكنها تعرضت بالفعل للتشويه والتحول ثلاث مرات بسبب التغير السريع والعنيف للأفكار التي تعرضت لها. كل شيء يتغير. إن روح الوضعية والنفعية - التي يعتبر منبطحي الوقت الحاضر مناصرين أقوياء لها - تخرق وتدمر. أفسحت العمارة، والعنقاة والوقار المجال أمام الذوق الحديث. واحسرتاه ! تختفي المدن القديمة بسرعة.

الفصل الحادي عشر

في ما يتعلق بمنزل ايباخ
حقارة الرجل. - منول ايباخ. - ماري ميديسي

ما تفعله الطبيعة، ربما، تدركه الطبيعة. لكن هناك شيء واحد مؤكد - ولست الوحيد الذي يقول بذلك - لا يدرك الرجال ما يفعلون. في كثير من الأحيان، في المواجهة بين التاريخ والعالم المادي، وفي خضم المقارنات التي يرسمها ذهني بين الأحداث التي يخفيها الله، ويكشف عنها الزمن والخلق جزئياً، أرتجف سرّاً عندما أفكر في أن الغابات والبحيرات والجمال والسماء والنجوم والمحيطات، تلك الأشياء الصافية والرهيبية، زاخرة بالنور وملينة بالعلم. ثم أنظر في ازدراء للإنسان، ذلك الشيء المتغطرس الوقح، المرتبط بالعجز، قطعة الغرور المعمية بجهلها. ربما الشجرة واعية بثمارها، لكن بالنسبة لي، لا يدرك الإنسان شيئاً عن قدره. تقبع حياة الإنسان وفهمه تحت رحمة قوة يسميها بعضهم سماوية، وآخرون العناية الإلهية. إمكانية تمزج وتجمع وتفكك كل شيء. تخفي أعمالها في الغيوم، وتفصح عن النتائج في يوم مفتوح. نعتقد أننا نفعل شيئاً ما بينما نفعل شيئاً آخر، مخرج الإبريق. يقدم التاريخ أدلة كثيرة على ذلك. عندما سمح زوج كاثارين ميديتشي وعشيق ديان دي بواتييه لنفسه بأن تُغرى بفكرة فيليب ديو، لم تكن ديان أنغوليم الوحيدة التي ولدت من ذلك الحدث فقط، بل تسبب أيضاً في المصالحة بين ابنه هنري الثالث وابن عمه هنري الرابع. وعندما اختبأ تشارلز الثاني من إنجلترا، بعد معركة ورسستر، في جذع بلوط. لم يفكر سوى في الإختباء، لكن كانت النتيجة أكبر، أطلق

على المجموعة النجمية اسم "البلوط الملكي"، وأعطى لمذنب هالي فرصة الانتفاص من شهرة الفلكي تيخو.

الغريب أنَّ الزوج الثاني لمدام دي مينتينون، تسبب أثناء إلغاء مرسوم نانت وبرلمان عام 1688، وطرده جيمس الثاني، في معركة ألمانزا الاستثنائية، حيث كان الجيش الفرنسي بقيادة رجل إنجليزي، مارشال بيرويك، والجيش الإنجليزي بقيادة رجل فرنسي، يوفيني (لورد غالوي). إن لم يمت لويس الثالث عشر في الرابع عشر من مايو عام 1643، لم يكن لكونت دي فونتانا القديم أن يهاجم إيوكروي، الأمر الذي أعطى أميرًا بطوليًا يبلغ اثنين وعشرين عامًا الفرصة المجيدة لجعل دوق دينغيان كوندي الأكبر.

في خضم كل هذه الحقائق الغربية والمذهلة التي تثقل كرونولوجياتها كواهلنا، يا لها من وقائع فريدة وغير مسبوقة. يالها من ضربات مضادة هائلة. تسبب لويس الرابع عشر في عام 1664، بعد الإساءة لسفيره، كريكي، في طرده الكورسيكيين من روما، بعد مائة وأربعين عامًا، نفى بونابرت آل بوربون من فرنسا.

يا لها من ظلال، ولكن ياله من نور يظهر في وسط الظلمة. حوالي عام 1612، عندما رأى هنري دي مونتورنسي، الذي كان يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا تقريبًا، بين خدام والده، لوبيسبين دي شاتونوف شاحبًا ولثيم المظهر، ينحني ويجرح أمامه، والذي كان من الممكن أن يهمس في أذنه أنَّ هذا الخادم سيصبح أدنى الشماس. وأنَّ أدنى الشماس هذا سيصبح سيد الختم العظيم. سيرأس حارس الختم العظيم هذا برلمان تولوز، وبعد مرور عشرين عامًا سيطلب هذا "الرئيس الشماسي" من البابا إذنًا بقطع رأس سيده، هنري الثاني دوق مونتورنسي، مارشال فرنسا. نظير المملكة، مقطوع الرأس؟. عندما أضاف رئيس ثو فقراته بعناية إلى المرسوم التاسع للويس الحادي عشر، الذي كان من الممكن أن يخبر الملك أنَّ هذا المرسوم بالذات، مع لوبارديمونت قابضًا عليه، سيكون الفأس الصغيرة التي سيقطع بها ريشيلو رأس ابنه؟

وسط كل هذه الفوضى توجد قوانين. الارتباك على السطح فقط، والنظام في الأسفل. بعد فترات طويلة تلك الحقائق المخيفة المشابهة لتلك التي أذهلت آبائنا، تأتي مثل المذنبات، بكل رعبها. الكمائن دائمًا نفسها، المصائب ذاتها، التعثر على السواحل نفسها دائمًا. يتغير الاسم وحده، وترتكب الأفعال ذاتها. ربما قال الإمبراطور لحراسه الثلاثة عشر قبل أيام قليلة من المعاهدة المميّنة لعام 1814:

"سيخونني أحكم حقًا".

يعتز القيصريون بالبروتوسيين. منع تشارلز الأول كرومويل من الذهاب إلى جامايكا. يلقي لويس السادس عشر العقبات في طريق ميرابو، الذي يرغب في التوجه نحو جزر الهند. الملكات

اللاتي اتسمت أعمالهن بالقسوة يعاقبن من الأبناء الجاحدين. ينجب الأغريبيون النيرونيون، الذين يقضون على من أنجبوهم. تنجب ماري دي ميديسي لويس الثالث عشر الذي نفاها. أنت تلاحظ، بلا شك، التحول الغريب الذي اتخذته أفكاره من فكرة إلى أخرى، لهذين الإيطاليتين، لهاتين المرأتين، ماري ميديسي وأغريبيننا، أشباح كولونيا. منذ حوالي ألف وستمئة عام، ربطت ابنة جرمانيكوس ووالدة نيرون، اسمها وذاكرتها بكولونيا، كما فعلت في وقت لاحق زوجة هنري الرابع. وأم لويس الثالث عشر. قتلت الأولى التي ولدت هناك بخنجر. وقضت الثانية في كولونيا من آثار السم.

زرت في كولونيا المنزل الذي لفظت فيه ماري فرنسا أنفاسها الأخيرة، منزل إيباخ بحسب رواية البعض، وبيبا بحسب البعض الآخر. لكن، وبدلاً من ربط ما رأيته، سأخبر عن الأفكار التي برزت في ذهني عندما كنت هناك. معذرة لعدم إعطاء كل التفاصيل المحلية التي أنا مغرم بها، في الواقع، أخشى أنني أرهقت القارئ بأكاليلي ونباتاتي. توفيت الملكة التعيسة هنا، عن عمر يناهز الثامنة والستين، في الثالث من يوليو عام 1642. تم نفيها من فرنسا لمدة ثماني سنوات، تجولت في كل مكان، وكانت ثمينة للغاية بالنسبة للبلدان التي توقفت فيها. عاملها تشارلز الأول بسخاء عندما كانت في لندن، وخصص لها خلال الثلاث سنوات التي أقامتها هناك، مئة جنيه إسترليني في اليوم. لكن يجب أن أذكر مع أسفي، أن باريس ردت كرم الضيافة هذا إلى هنريتا، ابنة هنري الرابع، وأرملة تشارلز الأول، من خلال منحها علية في اللوفر، حيث بقيت في الفراش كثيراً بسبب نقص وسائل الراحة والحماسة، متوقعة بفارغ الصبر القليل من لويس، وما وعداها مساعدته بإقراضها له. عانت والدتها، أرملة هنري الرابع، من نفس البؤس في كولونيا. كم هي غريبة ومذهلة التفاصيل. لم تكد ماري ميديسي تفارق الحياة حتى توقف ريشيلو عن الحياة، وقضى لويس الثالث عشر في العام التالي. ما فائدة الكراهية المتأصلة التي كانت قائمة بين هذه الكائنات الفانية الثلاثة؟ لماذا كل هذا القدر من الدسائس والتشاجر والاضطهاد؟ الله وحده يعلم. مات الثلاثة في نفس الساعة تقريباً.

هناك شيء باقي ذو طبيعة غامضة حول ماري ميديسي. لطالما شعرت بالرعب من الجملة الرهيبة التي كتبها الرئيس هينولت، والتي جاءت ربما بدون قصد، عن هذه الملكة: "لم تفاجأ بما يكفي لوفاة هنري الرابع".

يجب أن أعترف أن كل هذا يلقي بريقاً على تلك الحقبة الرائعة، عهد لويس الرابع عشر المجيد. كان الظلام الذي حجب بداية ذلك القرن يتناقض بشكل مثير للإعجاب مع تآلق نهايته. لم يكن لويس الرابع عشر قوياً فقط مثل ريشيلو، لكنه كان مهيباً، ولم يكن ككرومويل عظيماً، بل كان به صفاء. ربما لم يكن لويس الرابع عشر عبقرية في السيادة، لكن العبقرية أحاطت به. ربما يقلل هذا من الملك في نظر البعض، لكنه يضيف المجد إلى عهده. أما بالنسبة لي كما تعلمون

جيدًا، فأنا أحب الكامل والمثالي، ولذلك دائمًا ما حظي باحترامي العميق هذا الأمير الجدير والقدير، المولود كما يجب، والمحبوب للغاية، والمحاط بعناية. ملك في مهده وملك في قبره. سيادة حقيقية بكل ما للكلمة من معنى. الملك المركزي للحضارة. محور أوروبا، يرى، إن جاز التعبير، من جولة إلى أخرى، ثمانية باباوات، وخمسة سلاطين، وثلاثة أباطرة، وملكين من إسبانيا، ثلاثة ملوك للبرتغال، وأربعة ملوك وملكة إنجلترا، وثلاثة ملوك للدنمارك، وملكة واحدة وملكان للسويد، وأربعة ملوك لبولندا، وأربعة قياصرة لموسكوفي، يتألقون ويختفون حول عرشه، نجم قطبي لعصر كامل، رأى خلال اثنين وسبعين عامًا جميع الأبراج تتطور بشكل مهيب من حوله.

الفصل الثاني عشر

كلمات قليلة بخصوص متحف فالدراف.
شلايس كوتين. - "نظام اليد الممدودة"، أو طوارئ السفر. - الخلاصة.

بجانب الكاتدرائية ودار البلدية ومنزل ايباخ، قمت بزيارة شلايس كوتين، بقايا القناة الجوفية التي كانت في زمن الرومان تمتد من كولونيا حتى ترافيرس. يمكن رؤية آثارها في الوقت الحاضر في 32 قرية. دققت في كولونيا بمتحف فالدراف، وأكاد أميل إلى إعطائك قائمة جرد بكل ما رأيته، لكنني سأوفر عليك. يكفي أن أعرف أنه حتى وإن لم أجد العربة الحربية للألمان القدماء، أو المومياء المصرية الشهيرة، أو المدفع الكبير الذي صنع في كولونيا عام 1400، أنني رأيت تابوتًا رائعًا للغاية، ومستودع أسلحة برنارد، أسقف غالينوس. كما عُرض علي أيضًا درع هائل قيل إنه ملك جان دي فيرت، جنرال الإمبراطورية، ولكنني بحثت عبثًا عن سيفه الذي يبلغ طوله ثمانية أقدام ونصف، ورمحه الهائل الذي يشبه خشب صنوبر بوليفيموس، وخوذته الكبيرة التي يقال إنها تحتاج إلى رجلين لرفعها.

تضيء وجهه الرزين ابتسامة قاتمة. يسحب مجموعة من المفاتيح ويوجه خطواته نحو المدخل الرئيس. حينما تهم بالدخول، يمسك شيء ما ذيل معطفك، تلتفت، إنها المرأة العجوز الخدومة التي نسيتهما أيها البائس الجاحد. كافئها "ادفع". تجد نفسك أخيرًا داخل الكنيسة. تفكر، وتعجب وتذهل.

"لماذا تلك الصورة مغطاة بقطعة قماش خضراء؟"

يجيب الشماس: "لأنها أجمل صورة في الكنيسة".

تقول بدهشة "ماذا! أفضل صورة ومخفية؟ لو كانت في مكان آخر لكانت عرضت، من رسمها؟"

"روبنز".

"أود أن أراها".

"يتركك الشماس ثم يعود في غضون دقائق قليلة مع شخص عجوز بمظهر المتأمل إلى جانبه، إنه أمر الكنيسة. تضغط هذه الشخصية الهامة على زنبرك، وتسحب الستارة، ثم ترى الصورة. يُغلق الستار، وينحني أمر الكنيسة بشكل ملحوظ: "ادفع، ادفع". لدى مواصلة مسيرتك في الكنيسة، يتقدمك الشماس، تصل إلى باب الجوقة، حيث يقف رجل في انتظار صبور. إنه السويسري الذي يتولى مسؤولية الجوقة. تمشي حولها، ولدى مغادرتك، يرحب بك دليلك اليقظ بلطف. تجد نفسك مرة أخرى مع الشماس، وتمر بعد فترة وجيزة أمام غرفة المقدسات. معجزة المعجزات، الباب مفتوح. تدخل وتجد القندلفت². ينسحب الشماس، ليترك الآخر وحده مع فريسته. يبتسم القندلفت، ويريك جرار الحفظ، والحلي الكنسية والنوافذ المزخرفة، وقلنسوات الأساقفة، وهيكلًا عظيمًا لقديس يرتدي زي تروبادور في صندوق. رأيت غرفة المقدسات، لذا "يجب أن تدفع". يظهر الشماس مرة أخرى، ويقودك نحو السلم الذي يؤدي إلى البرج. يجب أن يكون المنظر من برج الكنيسة مبهجًا حقًا. تقرر الصعود. يدفع الشماس الباب. تصعد حوالي ثلاثين درجة، ثم تجد أن الباب المغلق يمنعك من المضي قدمًا إلى أبعد من ذلك. تنظر إلى الوراء، وتندهش من أن الشماس لم يصعد معك، وأنت وحدك. ما العمل؟ تدق يظهر وجهه، قارع الناقوس. يفتح الباب، مع سلوك لطيف، "ادفع". تمضي في طريقك، سعيدًا أنك بمفردك، أن قارع الجرس لم يتبعك. تبدأ بعد ذلك في الاستمتاع بالعزلة، وتصل بقلب مرح إلى المنصة العالية للبرج.

تنظر حولك، تأتي وتذهب، تعجب بالسماء الزرقاء والبلد المبتسم، والأفق الهائل. ترى فجأة حيوانًا مجهولًا يمشي بجانبك، ثم تضج أذناك بأشياء تعرفها، وربما لا تهتم بها كثيرًا. اتضح أنه المفسر الذي يشغل المنصب الرفيع ليشرح للغريب روعة البرج والكنيسة والبلد المحيط. عادة

² قندلفت: رتبة كنسية

ما يكون هذا الرجل لجلًا، وأحيانًا أصم. لا تستمع إليه. انسه وأنت تتأمل الكنائس والشوارع والأشجار والأنهار والتلال. عندما ترى كل شيء، تفكر في النزول وتوجه خطواتك نحو السلم. قارع الناقوس هناك أمامك "ادفع".

تقول وأنت تنقر بإصبعك على محفظتك التي تذوب مؤقتًا: "حسنًا، ما المبلغ الذي يجب أن أمنحك إياه؟"

"أنا أتقاضى فرنكين عن كل شخص، ويذهب هذا المبلغ إلى عائدات الكنيسة. لكن يا سيدي، يجب أن تمنحني شيئًا لعنائي".

تنزل فيظهر الشماس، ويقودك باحترام نحو باب الكنيسة. لا يفشل الكثير من العناء في الحصول على مكافأة جيدة.

تعود إلى الفندق، وبمجرد أن تدخل، ترى شخصًا يقترب منك بنحو مألوف، غير أنه غريب عنك تمامًا. هذا هو الشخص الذي أخذ جواز سفرك، ويعود به الآن، لتدفع له. تتعشى، تحين ساعة رحيلك، ويحضر لك الخادم الفاتورة، "ادفع" مقابل عناء أخذ المال أيضًا. يحمل السائس حقائبك إلى العربة، يجب أن تتذكره. تدخل العربة وتنطلق. يحل الليل، تبدأ الدورة نفسها غدًا.

دعونا نلخص باختصار. شيء للسائق، مقدار ضئيل لمساعد السائق، العتال، الرجل الذي لا يعمل لحساب الفندق، المرأة العجوز، روبنز، السويسري، القندلفت، قارع الجرس، إيرادات الكنيسة، الشماس، حامل الجواز، الخدم والسائس. كم عدد المدفوعات التي تُطلب منك في اليوم؟ تذكر أن كل واحد يجب أن يكون من الفضة، ينظر إلى النحاس هنا بأكبر قدر من الازدراء، حتى من قبل عامل القرميد والطوب.

المسافر بالنسبة لهذا الشعب البارع، هو طريدة للنهب، يتعرق من أجله السكان الطيبون، من أجل الانتهاء في أسرع وقت ممكن. وتطالب الحكومة نفسها بين الحين والآخر بنصيب من الغنائم. تأخذ حقيبتك والصندوق، وتضعهما على كتفيها، وتمد لك يدها. يدفع الحمالون في المدن الكبيرة للخرينة الملكية اثني عشر سوسًا ولباردين³ عن كل مسافر. لم أقض ربع ساعة فقط في آخن حتى دفعت بعض القطع النقدية لملك بروسيا.

³ سوس ولباردين: أسما عملتين قديمتين

الفصل الثالث عشر

أندرناخ.

مشهد من أندرناخ. - قرية ليوترسدورف. - كاتدرائية. - آثارها. - قلعة أندرناخ. - نقش. - قبر هوتش. - الكنيسة القوطية والنقش.

توقفت في أندرناخ منذ ثلاثة أيام. مدينة محلية قديمة تقع على ضفاف نهر الراين. المنظر من نافذتي ساحر حقًا. يقع أمامي على سفح تلة عالية تحجب عن نظري جزءًا من السماء الزرقاء، برج جميل من القرن الثالث عشر. على يميني نهر الراين، وقرية ليوترسدورف البيضاء الصغيرة الساحرة التي يختبئ نصفها بين الأشجار. على يساري أربعة أبراج لكنيسة رائعة من القرن الحادي عشر، اثنان عند البوابة واثنان عند المحراب.

يتميز برجا البوابة الكبيران بتصميم فريد وغير منتظم لكنه فخم. إنهما مربعان، تعلوهما أربعة جملونات مثلثة مدببة، تحمل في فجواتها أربعة معيّنات إردوازية، متصلة في أعلاها وتشكل نقطة القمة. تطقق تحت نافذتي في وئام تام، دجاجات وأطفال وبط، وهناك في الخلف، يعمل الفلاحون بين الكروم. لكن يبدو أنّ هذه الصورة لم ترض صاحب الذوق الذي زين الغرفة التي أعيش فيها، فثبّت بجانب نافذتي، كجوهرة متدلّية بدون شك، صورةً لشمعدانين كبيرين موضوعين على الأرض، وتحمل هذا النقش: "مشهد لباريس". تمكنت بجهد عقلي من تبين أنّ هذا تمثال لباريير دو ترون. هذا الشيء يشبهه بطريقة مدهشة.

زرت الكنيسة يوم وصولي. وكانت من الداخل -رغم طريقة التجسيص البشعة التي قام بها أحدهم- جميلة إلى حد ما. دُفن الإمبراطور فالنتينيان، وابن فريديريك بربروسا في هذه الكنيسة، لكن لم تدل النقوش أو شواهد القبور على المكان الذي دفنا فيه. مخلصنا عند الضريح، عدد قليل من تماثيل القرن الخامس عشر بالحجم الطبيعي، وفرسان من القرن السادس عشر متكئون على جدار، عدة شخصيات، فتات ضريح من عصر النهضة، كانوا كل ما يمكن أن يطلّني عليه قارع الجرس المحدودب المبتسم مقابل قطعة صغيرة من النحاس المطلي بالفضة والتي تقارب هنا ثلاثين سوسًا.

يجب أن أذكر مغامرة صغيرة مررت بها، حادثة تركت في ذهني إحساس حلم كئيب.

تجولت بعد مغادرتي للكنيسة في أنحاء المدينة. كانت الشمس تغرب خلف التلال المرتفعة التي تأخذ مظهر الكبرياء والأصالة، وتطل على الراين، وعلى القبر الإمبراطوري لفالنتينيان، وعلى دير القديس توماس، وعلى الجدران القديمة لمدينة ناخبي تريفيس الإقطاعية. تابعت طريقي بجانب الخندق المائي الذي يوازي حواف الجدران المتهدمة، والحجارة المتساقطة التي تستخدم كمقاعد وطاولات للأطفال نصف العراة ليلعبوا عليها، وليخبر لديها الشباب في المساء راعيهم العادل عن آلام قلوبهم الجريحة. أصبحت القلعة الهائلة التي كانت في يوم من الأيام دفاع أندرناخ، خراباً هائلاً الآن. والساحة التي كانت في يوم من الأيام مقرّاً للحرب، مغطاة الآن بالعشب الذي تبيض عليه النساء في الصيف الملابس التي تحببها في الشتاء. بعد مغادرتي بوابة أندرناخ الخارجية، وجدت نفسي على ضفاف نهر الراين. كان الليل هادئاً رائعاً، وهددت الطبيعة نفسها لتنام. جاءت الفتيات الريفيات للشرب من التيار الصافي، ثم هربن في فرح ليختبئن بين الخوص. أمامي قرية بيضاء ضائعة في البعيد، وباتجاه الشرق عند أقصى حدود الأفق، ظهر القمر، أحمر اللون مستديراً مثل عين الصقlob⁴، يتوسط صاحبتين. كم مرة تمشيت على هذا النحو، غير واع سوى بالجمال الذي قدمته الطبيعة، أحياناً فقط من أجل السيدة التي لها سطوة كبير على العقل الحساس. لم أكن أعرف أين أنا، ولا أين كنت شارداً، وعندما استيقظت من خيالاتي وجدت نفسي عند سفح أرض مرتفعة، توجت قمته ببعض الأعمال الحجرية. اقتربت، وذهلت إلى حد ما عندما وجدت ضريحاً. لمن؟ تجولت محاولاً اكتشاف اسم الشخص الذي تحيي ذكراه، وأخيراً أدركت نقش الأحرف النحاسية التالي: -

جيش منطقة سامبر وميوز يحظى بقائد عام

رأيت على ضوء القمر المتلألئ فوق هذين السطرين، الاسم هوتش. سقطت الحروف لكنها تركت بصماتها على الغرائيت.

كان لرؤية هذا الاسم، في هذا المكان، في مثل هذه الساعة، في مثل هذا الضوء، تأثير غريب عليّ ليس بالإمكان وصفه. لطالما كان هوتش المفضل لدي: كان مثل مارسو، أحد هؤلاء الشباب الذين قدموا بونايرت في محاولة كانت ناجحة تماماً. إذن أعتقد أنّ هذا هو مكان استراحة هوتش، والتاريخ الذي لا يزال يذكر، يوم 18 أبريل 1797، يومض في ذاكرتي.

نظرت حولي، محاولاً بشكل عبثي، تحديد المكان. شمالاً، هناك سهل شاسع. جنوباً وعلى بعد مسافة طلقة نارية نهر الراين. وعند قدمي، لدى قاعدة هذا الضريح، قرية صغيرة. مر في تلك

⁴ كائن أسطوري.

اللحظة رجل على بعد خطوات قليلة من النصب. سألته عن اسم القرية، فأجاب وهو يختفي خلف سياج "فايس تورم".

تدل هاتان الكلمتان على "برج أبيض". ثم تذكرت توريس ألبا الرومان، وكنت فخوراً أن وجدت أن هوتش قد مات في مكان لأمع. هنا حيث عبر القيصر نهر الراين لأول مرة منذ ألفي عام. ما معنى هذه السقالات؟ هل هي للترميم أم للهدم؟ لا أعرف.

تسلقت القاعدة، وتشبثت بالعوارض عن طريق إحدى الفتحات الأربع التي تشكل الإطار. نظرت إلى الصريح، تجويف صغير مربع الزوايا، مكشوف، قاتم وبارد. حدد شعاع القمر القادم من أحد الشقوق، شكلاً أبيضاً منتصباً واقفاً مقابل الحائط في الظلام.

دخلت للغرفة من خلال فتحة ضيقة، خافضاً رأسي وجاراً نفسي على ركبتي. رأيت هناك حفرة مستديرة وسط الأرض، ومظلمة تماماً. أنزل التابوت في القبو سابقاً من خلال هذه الحفرة بلا شك. عُلق حبل هناك، ضائعاً في الظلمة. اقتربت وغامرت بالنظر في هذه الحفرة، حاولت في ظلمة هذا القبو العثور على التابوت. لم أر شيئاً.

تمكنت بشيء من الصعوبة من تمييز الخطوط الغامضة لنوع من الاستراحة الجنائزية، مفصلة داخل القبو، وملحوظة بشكل خافت في الظل.

بقيت هناك لفترة طويلة، عيني وعقلي مستغرقان عبثاً في هذا اللغز المزدوج للموت والليل، ونفسٌ جليدي يخرج من حفرة الفم المفتوح.

لا أستطيع القول بما مر في ذهني. قابلني هذا القبر فجأة، وأتاني هذا الاسم العظيم على حين غرة، التجويف الحدادي، القبو المسكون أو غير المستقر، السقالات التي لمحتها، العزلة والقمر الذي يلف القبر، داهم كل ذلك ذهني فجأة وملاًه بأفكار قاتمة. ارتعش قلبي بإحساس عميق بالرثاء. هذا إذن ما يصيب الميت الشهير عند نفيه أو نسيانه في أرض الغريب! هذا النصب التذكاري الذي رفعه جيش كامل تحت رحمة المارة. ينام الجنرال الفرنسي العظيم بعيداً عن موطنه في حقل فاصوليا، ويفعل البناؤون البروسيون بقبره ما يبدو جيداً بنظرهم.

ظننت أنني سمعت صوتاً يخرج من كتلة الحجارة تلك، ويقول: "على فرنسا أن تستعيد نهر الراين".

بعدها بنصف ساعة كنت في الطريق إلى أندرناخ، التي كنت بعيداً عنها بفرسخ وربع فقط. أندرناخ مكان جميل أسعدني حقاً. تحتضن العين من أعلى التلال، دائرة هائلة تمتد من سيبينجربيرغ إلى قمم إرينبرايتشتاين. لا يوجد هنا حجر صرح ليس له تذكاري، ولا منظر واحد لهذه البلد لا يحوي جمالها ونعمها، والأكثر من ذلك، أن ملامح السكان تحمل ذلك التعبير الصريح المفتوح الذي لا يفشل في خلق البهجة في قلب المسافرين. أندرناخ مدينة ساحرة، رغم أنها مكان

مهمل. لا أحد يذهب حيث التاريخ والطبيعة والشعر. كوبلنتس، وبادن ومانهايم أصبحوا الآن المنتجع الحصري للسياح الراقين.

ذهبت إلى الكنيسة للمرة الثانية. الزخرفة البيزنطية للأبراج غنية، وذوقها فظ ورائع في آن. أبواب المدخل الجنوبي مثيرة للفضول. لا يزال هناك تمثيل لصلب المسيح مرئيًا تمامًا على المنحدر، وعلى الواجهة نقش بارز يمثل يسوع على ركبتيه وذراعه ممدودتان باتساع. على كل جانب منه يستلقي بشكل مبعثر، كما لو كانوا في حلم مخيف، عباءة، صولجان القصب، تاج الأشواك، العصا، الكماشة، المطرقة، المسامير، السلم، الرمح، ممسحة مملوءة بالمرارة، الصورة الشريرة للصلب المتصلب، وجه يهوذا الغاضب، وأمام عيني السيد الإلهي الصليب، وعلى مسافة قصيرة يصرخ الديك مذكراً إياه بجحود صديقه وتخليه عنه. هذه الفكرة الأخيرة سامية، تصور تلك الآلام الأخلاقية التي هي أكثر حدة من الجسدية.

يلقي البرجان ظلالهما الهائلة على هذه المرثية الحزينة. نقش النحات الكلمات التعبيرية التالية:

"1538. يا عابري الطريق، تعالوا وقارنوا إن كان هناك ألم مثل ألمي

هناك كنيسة جميلة أخرى في أندرناخ، ذات هيكل قوطي، تحولت الآن إلى إسطنبول هائل لسلاح الفرسان البروسي. نرى من خلال الباب نصف المفتوح صفًا طويلاً من الخيول التي ضاعت في ظلال الكنيسة. خطت فوق الباب عبارة "يا مريم القديسة، صلّ لأجلنا"، وهي ليست نقشاً مناسباً لمنزل خيول.

كان من المفترض أن أرغب في صعود البرج الغريب الذي رأيته من نافذتي، وهو بحسب مظهره، برج المراقبة القديم للمدينة، لكن وبسبب السلم المكسور والسقف المتساقط اضطرت للتخلي عن الفكرة. مع ذلك، يحتوي الخراب القديم على الكثير من الأزهار. زهور ساحرة للغاية ومرتبة ومزروعة بشكل مثير للإعجاب وبعناية في جميع النوافذ، بحيث بدا المكان كما لو كان مأهولاً. إنه مأهول في الحقيقة، مأهول بالمستأجرين الأكثر خجلاً وغنجاً، تلك الجنية الرقيقة غير المرئية التي تسكن جميع الأنقاض التي تأخذها لنفسها، تمزق كل الطوابق والسقوف والسلالم، حتى لا تزعج أقدام الإنسان أعشاش الطيور. تضع أزهاراً جميلة على جميع النوافذ وأمام الأبواب، في أوانٍ مكونة من حجر مهيب جوفه المطر، أو شقّه الزمن. إنها تعرف كيف تفعل هذا لأنها جنية.

الفصل الرابع عشر

نهر الراين مساءً - تباين نهر الراين عن الأنهار الأخرى. - أول من استولى على ضفاف نهر الراين. - تيتوس والفيلق الثاني والعشرون. - سكان الراين الغامضون. - حضارة. - بيبين القصير، شارلمان ونابليون.

أحب الأنهار. فهي تفعل أكثر من مجرد حمل البضائع، تطفو الأفكار على سطحهما. تتغنى الأفاعي مثل البياض للمحيط بجمال الأرض، وخصوبة السهول، وروعة المدن. أفضل من بين جميع الأنهار، نهر الراين. مر عام الآن على عبوري لجسر القوارب في كيل، منذ أن رأيته لأول مرة. أتذكر أنني شعرت باحترام مؤكد، نوع من العشق لهذا النهر القديم والكلاسيكي. لا أفكر أبدًا في الأنهار - أعمال الطبيعة العظيمة تلك، والتي هي عظيمة أيضًا في التاريخ - دون انفعال عاطفي. أتذكر نهر الرون في فالسيرين. رأيته عام 1825، أثناء رحلة ممتعة إلى سويسرا، وهي إحدى الذكريات الحلوة السعيدة في حياتي المبكرة. أتذكر بأي ضجيج، وبأي خوار شرس، انطلق نهر الرون في الخليج بينما يرتجف الجسر الضعيف الذي أقف عليه تحت قدمي. أه، حسنًا، منذ ذلك الوقت، يرتبط نهر الرون في ذهني بالنمر، ويرتبط نهر الراين بالأسد.

تأثرت بالفكرة نفسها في الليلة التي رأيته فيها نهر الراين لأول مرة. وقفت لعدة دقائق أتأمل هذا النهر المتباهي والنبيل، العنيف دون غضب، البري بكل عظمة. متفاحًا ومهيبة في مظهره، وكان يغسل بعرفه الأصفر - أو كما يقول بوالو: "لحيته الدبقة" - جسر المراكب. ضاعت ضفتاه في الغسق، ورغم علو هديره، ساد السكون. نعم، نهر الراين نهر نبيل، إقطاعي، جمهوري وإمبراطوري، يهيم في الوقت نفسه فرنسا وألمانيا. يتحد تاريخ أوروبا كله في جانبيه العظيمين، في فيض المحارب والفيلسوف، في هذا النهر المتباهي الذي يغمر فرنسا في الفرح، ويربك أحلام ألمانيا في مهماتها العميقة.

نهر الراين فريد من نوعه. فهو يجمع بين صفات كل نهر. سريع مثل الرون، واسع مثل اللوار، مغلف مثل الميوز، متعرج مثل السين. شفاف وأخضر مثل السوم، تاريخي مثل التيبير، ملكي مثل الدانوب، غامض مثل النيل، يتلألأ بالذهب مثل نهر أمريكي، ومثل نهر من آسيا، تكثر فيه الأشباح والأساطير.

قبل بدء التاريخ، ربما حتى قبل وجود الإنسان، كان هناك، حيث يوجد نهر الراين الآن، سلسلة مزدوجة من البراكين، تركت بعد انطفائها ركامًا متوازيًا من الحمم البركانية والبالزات، مثل جدارين طويلين. في الحقبة ذاتها تشكلت التبلورات الهائلة الجبال الطبيعية. جفت الترسبات الهائلة التي تتكون منها الجبال الثانوية. الركام المخيف، الذي يسمى الآن جبال الألب، نما تدريجيًا، وتراكم عليه الثلج، وخرج منه نهران عظيمان. تدفق أحدهما نحو الشمال، عبر السهول، وواجه جوانب البراكين الخاملة، ثم أفرغ نفسه في المحيط. وسار الآخر في اتجاه الغرب، يتساقط من جبل إلى جبل، ويتدفق على طول جانب كتلة البراكين الخاملة، والتي تسمى الآن الأرديش، وضاع أخيرًا في البحر الأبيض المتوسط. أولهما نهر الراين، والثاني نهر الرون.

طبقًا للسجلات التاريخية نجد أن أول من استولوا على ضفاف نهر الراين كانوا الكلت نصف المتوحشين، الذين أطلق عليهم الرومان اسم الغال، كما قال قيصر: "الذين يطلق عليهم في لغتهم الأم الكلت، وفي بلادنا

الغال". أسس أفراد قبيلة الروراسي أنفسهم بالقرب من المنبع، والأرجينتوراسي والموغونتيا بالقرب من المصب. ولما حان الوقت ظهر قيصر. بنى دروسوس قلاعه الخمسين، وبدأ القنصل موناتيوس بلانكوس في بناء مدينة في أقصى شمال غورا، وأسس ماركوس فيبسانيوس أغريبا حصناً عند مجرى نهر المين، وبعده مستعمرة قبالة تويتيوم، وأسس السيناتور أنطونيوس في عهد فيرو بلدية بالقرب من بحر باتافيان، وكان نهر الراين بأكمله تحت سيطرة روما. عندما كانت روما في أوج مجدها، عبر قيصر نهر الراين، وبعدها بوقت قصير كان النهر بأكمله تحت سلطة إمبراطوريته. لدى عودة الفيلق الثاني والعشرين من حصار القدس، أرسله تيتوس إلى ضفاف نهر الراين، حيث واصل عمل مارتينز أغريبا. طلب المنتصرون ببلدة تربط ميليبوكوس بتاونوس، ماينتز التي بدأها ماركوس، وأسسها الفيلق، وبنها تراجان وزينها أدريان.

صدفة غريبة، يجب أن نلاحظها لدى مرورنا: جلب الفيلق الثاني والعشرون معه كريستوس، الذي كان أول من حمل كلمة الله إلى راينغاو، وأسس الدين الجديد. أمر الله هؤلاء الجهلة الذين هدموا آخر حجر في هيكله على نهر الأردن، بوضع حجر آخر على ضفاف نهر الراين. جاء بعد تراجان وأدريان جوليان، الذي أقام حصناً عند ملتقى نهر الراين وموزيل. ثم فالنتينيان، الذي بنى عدداً من القلاع على البركانين الهامدين اللذين نطلق عليهما اسمي لوفينبرغ وشترومبرغ. وهكذا نجد في عدة قرون أن الخط القوي من المستعمرات الرومانية متماسك وموحد على النهر، وهذه المستعمرات تعرف بالآتي: فينيسيل، ألتافيل، لوركا، قلعة تراجان، فيرساليا، ومولا الرومان، توريس ألبا، فيكتوريا، رودوبريغا، أنطونياكوم، سيناكوم، ريغودونوم، ريغوماغوم، وتيلبيتوم بروليوم، التي تمتد من كورنو الرومان إلى بحيرة كونستانس، وتنزل حتى نهر الراين، وتستريح في أوغوستا، بازل الحديثة. وفي أرجنتينا، ستراسبورغ الحديثة. وفي موغونتياكوم، التي هي ماينتز الآن. على كونفلوينتيا، الآن كوبلنتز. وعلى كولونيا أغريبينا، وهي كولونيا الآن. وتوحد نفسها بالقرب من المحيط إلى تراجكتوم أد موزم، الآن ماستريخت، وإلى تراجكتوم أد رينوم، الآن أوترخت.

صار الراين من ذلك الوقت رومانياً. لم يعد سوى تدفق يسقي مقاطعة هيلفتيك البعيدة، ألمانيا الأولى والثانية، والمقاطعتين البلجيكية، والباتافانية. رُوض الغال ذوو الشعر الطويل في الشمال، وأقصد أولئك الغال الذين اعتاد غال ميلانو الذين يرتدون الملابس الرومانية، وغال ليون الذين يرتدون البنطال، أن يذهبوا لرؤيتهم بدافع الفضول في القرن الثالث.

أرهبت قلاع الضفة اليسرى الرومانية الضفة اليمنى، ولم يكن لدى الفيلقي الذي كان يرتدي ثوباً من تريفيس والمسلح بمطراد من تونغريس، ما يفعله سوى مشاهدة عربية الحرب الألمانية القديمة من أعلى الصخور، - برج متدحرج على عجلات مسلحة بالمناجل، وعمود مليء برماح، تسحبها الثيران، بها برج يسع عشرة رماة- والتي تتجراً أحياناً على القدم من الجانب الآخر من نهر الراين، وتحت منجنيق حصون دروسوس حتى.

هذا العبور المخيف لرجال الشمال نحو مناطق الجنوب، والمتجدد بعواقب قاتلة على فترات حرجة معينة من حياة الأمم، والذي أطلق عليه غزو البرابرة، جاء لإرباك روما عندما حانت لحظة تحولها.

سحق هذا الفيضان الحاجز الجرانيتي والعسكري للقلعة. وبحلول القرن السادس كُلت مرتفعات نهر الراين بالحطام الروماني، كما تُكلل اليوم بالحطام الإقطاعي. أستعاد شارلمان الأنقاض، وأعاد بناء القلاع، وعارض الجحافل الجرمانية القديمة التي تظهر الآن تحت أسماء أخرى، مثل البريمانيين، الأبودريتيين، الويلباتيين والسرابيين. بنى في ماينتز، حيث دفنت زوجته فاسترادا، جسراً على أكوام حجرية، يقال إنه لا يزال من

الممكن رؤية أنقاضه تحت الماء. رمم الطرق الرومانية في فيكتوريا، التي هي نيوفيد الآن. باكيارا، الآن باخاراخ. وفيينيسلا، الآن وينكل. وثرانوس باتشي، الآن ترارباخ. رمم قناة بون، وشيد من أنقاض ممر قصر جوليان قاعة نيدر إنغلهام.

كما ذكرت من قبل، كانت هناك جرثومة غير محسوسة تنتشر في منطقة راينغاو بالفعل. بدأ الدين، ذلك النسر الإلهي، في نشر جناحيه، وأودع بين الصخور بيضة تحتوي على جرثومة العالم. زار القديس أبولينير -متبعًا مثال كريستوس، الذي بشر في عام 70 بكلمة الله في تاونوس- ريغوماغوم، القديس مارتن أسقف تورز، التعليم المسيحي في كونفلينزيا. أقام القديس ماتيرن قبل زيارة تونغريس في كولونيا. بدأ المسيحيون في تريفيس يقاسون الموت استشهاده، وجرفت الرياح رمادهم. لكنهم لم يضيعوا، فقد أصبحوا بذورًا تنبت في الحقول أثناء مرور البرابرة، مع أنه في ذلك الوقت لم يكن يُرى منهم شيء.

ارتبط نهر الراين بعد فترة تاريخية بالإعجاز. حيث يهدأ ضجيج الإنسان، تضيي الطبيعة لغة على أعشاش الطيور، وتتسبب في همس الكهوف، وهمهمات آلاف أصوات العزلة، حيث تتوقف الحقائق التاريخية، ويعطي الخيال الحياة للظلال والحقائق للأحلام. تجذرت الأساطير ونمت وازدهرت في فراغات التاريخ، مثل الأعشاب والعليقات في شقوق قصر مهدم.

الحضارة كالشمس لها ليالٍ ونهارات، وفرة وخسوف. تختفي الآن، لكن سرعان ما تعود. بمجرد بزوغ فجر الحضارة مرة أخرى على تاونوس، كانت هناك على حدود الراين مجموعة كاملة من الأساطير والقصص الرائعة. في كل جزء أضاءه هذا الإشراق البعيد، ظهرت فجأة ألف شخصية خارقة وساحرة في روعتها، بينما ظهرت أيضًا في جميع الأجزاء القاتمة الأشكال البشعة والأشباح المروعة. بعدها، وبينما كانت القلاع السكسونية والقوطية الجميلة، التي أزيلت الآن، تُبنى من البازلت الرائع الجديد، بالقرب من الآثار الرومانية التي اختفت تمامًا، انتشرت فوق راينغاو مجموعة كاملة من الكائنات الخيالية، على اتصال مباشر مع السيدات الجميلات والفرسان العادلين، واستحوذت الحوريات الجبلية على الغابة. حوريات الماء. عفاريت أحشاء الأرض. وكان هناك أيضًا روح الصخور، والضارب، والصيد الأسود، يسير عبر الغابة معتليًا وعلاً ضخماً له ستة عشر قرناً، وخادمة المستنقع الأسود، وعذراوات المستنقع الأحمر الست، والإله أودين ذو الستة أذرع، الرجال السود الاثنا عشر، الزرزور طارح الألغاز، الغراب الذي ينطق بأغنيته، وطائر العقعق الذي يستمر في سرد تاريخ أسلافه، قردات زيتيلموس، إيفيرارد ذو اللحية الذي قدم النصائح لأمرأء ضلوا أثناء الصيد، وسيغفريد ذو القرن الذي هاجم التنانين في كهوفهم. وضع الشيطان حجره في تيوفيلستين وسلمه في تيوفلسليتر، وكانت لديه الجراءة للوعظ علناً في غيرنسباخ، بالقرب من الغابة السوداء، لكن لحسن الحظ أقام الله على الجانب الآخر من النهر، مقابل منبر الشيطان، منبر الملاك. في حين أن الجبال السبعة، ذلك البركان الهامد والواسع، أصبحت مسكناً للوحوش، والهيديرا، والأشباح العملاقة، جلبت أنفاس ويسير الحادة في الطرف الآخر من السلسلة، إلى بينجن سحباً من الجنيات القديمة صغيرة مثل قواديس العشب. تطعم الميثولوجيا نفسها في هذه الوديان على أساطير القديسين، ما أدى إلى نتائج فريدة، زهور غريبة من الخيال البشري. كان لدى دراتشينفيلس، تحت أسماء أخرى، تاراسكوس والقديسة مارثا خاصته، وجدت الحكاية المزدوجة لإيكو وهيلاس منزلاً لها في صخرة لوريلي الهائلة. تسللت الأفعى البكر عبر باطن الأرض في أغسطس. أكل حتو، الأسقف الشرير، داخل برجه من قبل رعاياه، وتحول إلى جردان. تحولت أخوات شوينبيرغ السبع المحترقات إلى صخور، وكان للراين عذراواته، تمامًا كما كان للميز سيداته.

اجتاز الشيطان أوريان نهر الراين بواسطة التل الذي أخذه من شاطئ البحر في ليدن على ظهره، تضاعف إلى قسمين مثل كيس الطحان، من أجل سحق آخن. بعد أن أنهكه التعب وخدعته امرأة عجوز، أسقطه بغباء عند أبواب المدينة الإمبراطورية، التي يطلق عليها اليوم اسم لوزبيرغ. في هذه الحقة الغارقة في الظلام الذي تندفع خلاله بعض الشرارات السحرية هنا وهناك، لا نجد في هذه التلال والوديان والصخور سوى الظهورات، والرؤى، واللقاءات الهائلة، والصيد الشيطاني، والقلاع الجهنمية، وأصوات القيثرات في الأيك، وأغانٍ يغنيها مطربون غير مرئيين ونوبات ضحك مرعبة من عابري طريق غامضين.

أبطال بشريون يكادون يضاهون الشخصيات الخارقة في روعتهم، كونو من ساين، سيبو من لورتش، السيف القوي، جريسو الوثني، ثاسيلو دوق بافاريا، أنثيسوس دوق الفرنجة، سامو ملك الونديين، يتجولون في هذه الغابات المذهلة، بعيدون عن الرشد، يبحثون ويكون أحباءهم الضائعين، أميرات بيضاوات طويلات ونحيلات، يحملن أسماء ساحرة مثل غيلا، وغارليندا، وليبا، وويليسويندا وشونيتا. جميع هؤلاء المغامرين، بنصف ضياع في المستحيل، ونادراً ما يتمسكون بأعقاب الواقع، يأتون ويذهبون في الأساطير، ويضلون في المساء بشكل ميؤوس منه في الغابات التي ليس لها منفذ، يدوسون الحشرات والأغصان تحت حوافر جيادهم الثقيلة، مثل فارس الموت لألبرت ديرير، تتبعه كلاب سلوكية عملاقة، وتحقق به حشرات بين فرعين. في الظلام، يلتقط الفارس بعضاً من الفحم الأسود المشتعل من النار التي بجواره، والتي تحولت إلى شيطان يكسده مرجه بأرواح الخطاة. مرة أخرى، الحوريات عاريات تماماً، يقدمن لهؤلاء المسافرين علماً مليئة بالأحجار الكريمة، أو تماثيل لرجال كبار السن قد يعيدون إليهم أخت أو ابنة أو خطيبة، ممن وجدوا فوق جبل، ينامون على سرير من الطحالب، أو في جناح مزخرف بالمرجان والأصداف والبلورات، أو يلتقون ببعض الأقزام الأقوياء الذين يتحدثون بصوت عملاق، كما تقول القصائد القديمة.

تنهض من وقت لآخر من بين هؤلاء الأبطال الخياليين، شخصيات من لحم ودم، يتقدمهم شارلمان ورولان، شارلمان في جميع مراحل، الطفل، الشاب، بلحية رمادية، شارلمان الذي ولد في بعض الأساطير في الغابة السوداء، ورولان الذي لن يموت في أساطير أخرى في رونسفالييس، تحت ضربات جيش كامل، ولكن بسبب الحب على نهر الراين، في دير نونويرث، وأوتو، وفريدريك بربروسا وأولفوس من ناسو لاحقاً. تُظهر هذه الشخصيات التاريخية المزوجة في الحكايات بشخصيات خرافية، تراث الحقائق الواقعية التي لا تزال تكمن تحت نفايات الأحلام والخيالات. التاريخ الذي يُرى بشكل خافت من خلال الحكاية، هو حطام قديم يظهر هنا وهناك تحت الزهور التي تغطيه.

يتلاشى الظلام في المدى وتتلاشى الحكايات، ويطل النهار، وتستعاد الحضارة، ومعها يستأنف التاريخ شكله الحقيقي.

يتجمع بين الحين والآخر أربعة رجال، من أربعة أماكن مختلفة، بالقرب من صخرة على الضفة اليسرى لنهر الراين، على بعد خطوات قليلة من طريق شجري، بين اينس و كابالن. يجلس هؤلاء الأربعة على الصخرة، وعليها، يصنعون ويفككون أباطرة ألمانيا. هم النახبون الأربعة لنهر الراين. هذه الصخرة هي المقام الملكي، كونيجستوهل.

يقع المكان الذي اختاروه في منتصف نهر الراين تقريباً. وهو بعيد بالقدر نفسه عن رينز، التي تنتمي إلى ناخب كولونيا، ويتجه في الوقت نفسه نحو الغرب، على الضفة اليسرى من كابيلين التي تنتمي إلى ناخب ترينيس. ويتجه شمالاً على الضفة اليمنى، نحو أوبرلين شتاين التي تنتمي إلى ناخب ماينز، وأيضاً من

براو باتش التي تنتمي إلى ناخب بالاتين. يمكن لكل هؤلاء الناحيين الوصول من مناطقهم إلى كونيجستوهل في غضون ساعة واحدة.

من ناحية أخرى، يمكن لرؤساء البرغر في كوبلنتز وإينس أن يجتمعوا كل عام، في اليوم الثاني من عيد العنصرة، في المكان ذاته، بحجة الاحتفال، ويتناقشون معًا بشأن بعض الأسئلة المبهمة، بدايةً، هذه حياة مدنية تصنع سرًا ثقبها في الصرح الجرمانى الهائل الذي تم تشييده بالكامل بالفعل. المؤامرة الحية والأبدية للقليل ضد العظيم، تنبت بجراً بالقرب من كونيجستوهل، في ظل عرش الصخرة الإقطاعي نفسه.

في النقطة ذاتها تقريبًا، في قلعة ستولزنفيلز الانتخابية، التي تعلو فوق بلدة كابال الصغيرة، هي اليوم أطلال مهيبة. أحضر ورنر، رئيس أساقفة كولونيا، منذ عام 1380 وحتى 1418، بعض الكيميائيين الذين لم يصنعوا الذهب، لكنهم اكتشفوا في طريقهم إلى حجر الفيلسوف، العديد من قوانين الكيمياء العظيمة. وهكذا، وفي فترة زمنية قصيرة نسبيًا، كانت النقطة نفسها على نهر الراين -مكان مقابل مصب نهر لان، نادرًا ما يُلاحظ اليوم- مهد الديمقراطية والعلم للإمبراطورية الألمانية.

من ذلك الوقت فصاعدًا، اتخذ الراين جانبًا مزدوجًا، الأول عسكري والآخر ديني. تكاثرت الكنائس والأديرة. وربطت الكنائس على المنحدرات حصون الجبال بالقرى الواقعة على ضفاف النهر، صورة مدهشة -تتجدد عند كل منعطف للنهر- للطريقة التي يجب أن يكون عليها وضع الكاهن في المجتمع البشري.

ضاعف الأمراء الكنسيون المباني في راينغاو، كما فعل كهنة روما قبل ألف عام. بنى رئيس أساقفة تريرفيس بالدوين كنيسة أوبرفيسل. شيد رئيس أساقفة فيتجنج هنري جسر كوبلنتز فوق نهر موسيل. قدس رئيس أساقفة وولام من غوليرز بواسطة صليب حجري منحوت بشكل رائع أطلال كومان، والتشكيل البركاني لغودرسبرغ، أطلال وتلال بدون شبهة شك بشأن سحرها. القوة الزمنية والروحية ممزوجة في هؤلاء الأمراء كما في البابا. ومن ثم، سلطة مزدوجة تستولي على النفس والجسد ولا تتوقف، كما في الدول العلمانية البحتة في حضور رجال الدين. سم قسيس غوار، يوحنا من بارنيتش، بنبذ قربان كونتيسة كاتزينيلنبوجن، ومن ثم قام ناخب كولونيا بعزله من الكنيسة كأسقفه، وحرقه حيًا كأمره..

اضطر الناخب بالاتين، من جانبه، إلى الاحتجاج باستمرار على التعدي المحتمل لرؤساء أساقفة كولونيا وتريرفيس وماينز الثلاثة. أنجبت كونتيسات بالاتين ذريتهن، كدليل على سيادتهن، في بالاتينات، وهو برج تم بناؤه قبل كاوب، في منتصف نهر الراين.

وطدت جماعة الفرسان نفسها في ذات الوقت على نهر الراين، وسط هذه التطورات المتزامنة أو المتعاقبة للأمير المنتخب. تم تثبيت النظام التوتوني في ماينز، على مرمى البصر من تاونوس. بينما يتخذ فرسان رودس بالقرب من تريرفيس، في إطلالة على الجبال السبعة، موقعًا في مارتنشوف. تشعب النظام التوتوني من ماينز إلى كوبلنتز، حيث تكونت إحدى قياداته. كان لدى فرسان الهيكل، الذين كانوا بالفعل سادة كوريناى وبورينتروي في أسقفية بازل، بوبارت وسانت غوار على حدود نهر الراين، وترارباخ بين نهر الراين وموزيل. ترارباخ أرض النبذ الفاخر نفسها، في الواقع، كانت ثرونوس باتشي الرومان، التي كانت مملوكة لبيتر فلوت، الذي قال عنه البابا بونيفاس "الأعور جسديًا، والأعمى تمامًا عقليًا".

بينما كان الأمراء والأساقفة والفرسان يضعون أسهمهم، كانت التجارة تزرع مستعمراتها. نشأ حشد من المدن التجارية الصغيرة تقليدًا لكوبلنتز على نهر موسيل وماينز مقابل مين، عند نقاط التقاء جميع الأنهار والسيول التي تصب في نهر الراين من الوديان التي لا حصر لها في هوندسروك وهوهنروك، من قمم هامرشتاين والجبال السبعة. تأسست بينغن على نهر ناه، ونيدرالنشتاين على نهر لان، وإنغرز مقابل ساين، و غورليش

على نهر ويد، ولينز في مواجهة نهر آر، وريندروف على ميرباخ، وبيرغاين على سيغ. مع ذلك، وبغض النظر عن الفترات الفاصلة بين الأمراء الكنسيين والأمراء الإقطاعيين، وقيادات الفرسان الكنسيين ووكلاء الكومونات، أنجبت روح العصر وطبيعة البلد سلالة فريدة من اللوردات. ومن بحيرة كونستانس حتى الجبال السبعة، كان لكل قمة على نهر الراين قلاعها وحاكمها. البارونات الهائلون لنهر الراين هؤلاء، الثمار القوية ذات الطبيعة القاسية والوحشية، التي تعيش بين الصخور البازلتية، مؤمنة في سرادقها ويخدمها ضباط راکعون تمامًا مثل الإمبراطور نفسه، رجال مفترسون يتمتعون بصفات النسر والبومة، أقوى في منطقتهم، أقوى هناك فقط، سيطروا على الغور والوادي، وجنود الجبايات، فرضوا الرسوم على الطريق العام، ونهبوا التجار وهم في طريقهم إلى دوسلدورف أو سانت غال، كبلوا نهر الراين بسلاسلهم، وأرسلوا كارتلاتهم بفخر إلى المدن المجاورة عندما افترضت الأخيرة أنها تتداخل معهم. بهذه الطريقة، تحدى حاكم أوكنفيلز بلدية لينز الكبيرة، وتحدى الفارس، هاويزنر من هيغان، المدينة الإمبراطورية كاوفويرن. في هذه النزاعات الغريبة، طلبت المدن الخائفة والتي لم تشعر بأنها قوية بما يكفي، مساعدة الإمبراطور، ثم انفجر الحاكم ضاحكًا، وفي المهرجان التالي للقديس شفيع المدينة، أظهر نفسه بوقاحة في البطولة التي أقيمت هناك. خلال الحروب المخيفة لأدولفوس ناسو وديدييه من إيسمبيرغ، كان العديد من هؤلاء الفرسان، الذين كانت قلاعهم في تاونوس، قد تجرأوا على نهب إحدى ضواحي ماينز تحت أعين الذين يدعون سيادة الدولة. كانت سياستهم محايدة، لم يعمل الحاكم لصالح إيسمبيرغ ولا ناسو، كان يعمل لصالحه. لم يندثر هذا النوع الرهيب من النبلاء إلا في عهد ماكسيميليان، عندما دمر القبطان العظيم للإمبراطورية المقدسة، جورج من فروندسبيرغ، آخر القلاع. بدأت في القرن العاشر مع الحاكم البطل، وانتهت في القرن السادس عشر مع الحكام اللصوص.

لكن لم تتشكل نتائج الأشياء غير المرئية إلا بعد سنوات عديدة، وكانت تتحقق على نهر الراين أيضًا، وفي التقدم التجاري، وعلى متن سفن هذا الأخير، كانت روح الإلحاد وحرية البحث تطفوان فوق النهر العظيم، حيث يبدو أن كل فكرة إنسانية عظيمة تجد ممرًا. يمكن القول أن روح تانكيلين التي بشرت في القرن الثاني عشر ضد البابا أمام كاتدرائية أنتويرب، أبحرت فوق نهر الراين بعد وفاته، وألهمت جون هاس في مسكنه في كونستانس، ثم نزلت نهر الرون من جبال الألب، وأيقظت دوسيت في كومتات أفينيون. أحرقت جون هاس وحل محله دوسيت. لم تكن ساعة لوثر قد دقت بعد. في طرق العناية الإلهية هناك بعض الرجال كالفاكهة الخضراء، وآخرون كالناضجة.

اقترب القرن السادس عشر. شهد الراين في الرابع عشر اختراع المدفعية. وعلى ضفته، في ستراسبورغ، تم إنشاء أول مكتب طباعة. في عام 1400، صنع المدفع الشهير الذي يبلغ طوله أربعة عشر قدمًا، في كولونيا. وفي عام 1472 طبع فينديلين دي سباير، كتابه المقدس. ظهر عالم جديد. ومن الغريب القول إنه على ضفاف نهر الراين اتخذت هاتان الأداتان الغامضتان اللتان استخدمهما الإله بلا انقطاع في صنع شكلًا جديدًا لحضارة الإنسان - المنجنيق والكتاب، الحرب والفكر.

لنهر الراين في المصائر الأوروبية نوع من الدلالة الإلهية. إنه الخندق العظيم الذي يفصل الشمال عن الجنوب. شهد نهر الراين على مدى ثلاثين عصرًا، الأشكال ومعكوسات ظلال جميع المحاربين الذين حرثوا القارة العجوز بتلك الشفرة التي يسمونها سيف. عبر قيصر نهر الراين متجهًا نحو الجنوب، عبره أتيليا عندما نزل نحو الشمال. هنا فاز كلوفيس بمعركة توليباك، وحيث برز شارلمان ونابليون. كان فريديريك بربروسا، وإيودولف من هابسبورغ، وفريديريك الأول عظماء ومنتصرين ورائعين عندما كانوا هنا. بالنسبة للمفكر

المطلع على التاريخ، فإنَّ نسرَيْن عظيمَيْن يحومان على الدوام فوق نهر الراين، نسر الجحافل الرومانية، ونسر الأفواج الفرنسية.

حمل نهر الراين -ذلك الطوفان النبيل الذي أطلق عليه الرومان اسم رينوس سوبير هوس- في وقت ما جسور قوارب تدفقت فوقها جيوش إيطاليا وإسبانيا وفرنسا إلى ألمانيا، والتي استخدمتها في وقت لاحق جحافل البرابرة عند الاندفاع إلى العالم الروماني القديم. من ناحية أخرى، طافت على سطحه بسلام أشجار التنوب في مورغ وسانت غال، والسماقي ورخام بيل، وملح كارلشال، وجلود سترومبيرغ، ونبيذ لانسبيرغ، ونبيذ يوهانسبيرغ، وأردواز كوب، وقماش وأواني والاندر الفخارية وحرير وبياضات كولونيا. يؤدي الراين وبشكل مهيب وظيفته المزدوجة المتمثلة في فيض الحرب وفيض السلام، حيث يوجد، دون انقطاع، على سلاسل التلال التي تطوق الجزء الأكثر برورًا من مساره، أشجار بلوط من جانب وأشجار عنب من الجانب الآخر، ما يدل على القوة والفرح.

بالنسبة لهوميروس، لم يكن نهر الراين موجودًا. بالنسبة لفيرجيل، كان مجرد تيار متجمد "الراين البارد". وكان بالنسبة لشكسبير "الراين الجميل". وهو بالنسبة لنا كان وسيظل إلى اليوم الذي سيصبح فيه القضية الكبرى لأوروبا، "نهرًا خلابًا"، ومنتجع غير العاملين في إمس، وبادن وسبا. زار بترارك آخن، لكن لا أعتقد أنه تحدث عن نهر الراين.

تنتهي الضفة اليسرى إلى فرنسا بالطبع. منحت العناية الإلهية لفرنسا، في ثلاث فترات مختلفة، الضفتين. تحت حكم بيبين القصير، وشارلمان ونابوليون. تتألف إمبراطورية بيبين القصير من فرنسا، باستثناء آكيتاين وجاسكوني، وألمانيا حتى بافاريا. كانت إمبراطورية شارلمان ضعف إمبراطورية نابليون. صحيح أن نابليون كان لديه ثلاث إمبراطوريات، أو بشكل أكثر وضوحًا، كان إمبراطورًا من ثلاث نواحٍ، فرنسا بشكل مباشر، وإيطاليا وويستفاليا وهولندا عن طريق إخوته. وعلى هذا النحو كانت إمبراطورية نابليون على الأقل مساوية لإمبراطورية شارلمان.

ركز شارلمان، الذي كان لإمبراطوريته نفس مركز ونمط النشوء مثل إمبراطورية نابليون، في تراث بيبين القصير، ساكسونيا حتى إلب، ألمانيا حتى سال، إسكلافونيا حتى الدانوب، ودالماتيا حتى مصب كاتارو، وإيطاليا حتى جيتا وإسبانيا حتى إبرو.

توقف في إيطاليا عند حدود البينيفنتين والإغريق فقط، وفي إسبانيا عند حدود المسلمين.

عندما كان هذا التكتيف الهائل غير منتظم في عام 843، مات لويس لو ديبونير، بعد أن سمح للمسلمين باستعادة نصيبهم، تلك الشريحة من إسبانيا بين إيبرو ولوبريغات، وكان لا يزال هناك ما يكفي من الأجزاء الثلاثة التي تم تقسيم الإمبراطورية إليها لتتطلب سلطة إمبراطور. حصل لوتلير على إيطاليا وجزءًا مثلًا كبيرًا من بلاد الغال، وحصل لويس على ألمانيا وتشارلز على فرنسا.

ثم، في عام 855، عندما قُسم الجزء الأول من هذه الأجزاء الثلاثة، كان من الممكن صنع أجزاء صغيرة من فئات إمبراطورية كارلوفينجيان: إمبراطور، لويس في إيطاليا، وملك، تشارلز في بروفانس وبورغوندي، وملك آخر، لوثير في أستراسيا، دُعيت لهذا السبب لوثرينغيا، التي هي الآن لورين. عندما حان وقت تفكك الجزء الثاني، شكل الجزء الأكبر إمبراطورية ألمانيا، وأنشئ من البقايا الأصغر، سرب لا حصر له من المقاطعات والدوقيات والإمارات والمدن الحرة، التي يحميها الحكام العسكريون، ونُصب حراس الحدود. وأخيرًا، عندما حان وقت الجزء الصغير الثالث، ولاية شارل الأصغر، التي انحنت وانكسرت تحت وطأة السنوات والأمراء، كان هذا الخراب الأخير كافيًا لخلق ملك (ملك فرنسا)، وخمسة سادة من النبلاء، (دوقات

بورغندي، ونورماندي، وبروتاني، وأكيتاين وغاسكوني)، وثلاثة أمراء من الكونتات (كونتات مقاطعات شامبين، وتولوز وفلاندرز).

أباطرة جبابرة: أمسكوا بالكون للحظة بأيديهم، ثم انتزعها الموت من قبضتهم، وانهار كل شيء. يمكن القول إنَّ الضفة اليمنى لنهر الراين كانت ملكًا لنابليون كما كانت لشارلمان.

لم يحلم بونابرت بدوقية الراين، كما فعل بعض رجال الدولة المتوسطيين في الصراع الطويل بين البيت الفرنسي والبيت النمساوي. كان يعلم أنَّ المملكة الطولية غير المنفصلة مستحيلة، وستتثنى وتقطع إلى نصفين عند أول صدمة عنيفة. ببساطة، يجب ألا تؤثر المقاطعة على النظام البسيط. إن أرادت الولايات الحفاظ على استقلالها، فمن الضروري وجود نظام عميق.

باستثناء بعض التشوهات والتكتلات، أخذ الإمبراطور اتحاد نهر الراين، كما صنعتها الجغرافيا والتاريخ، وكان راضياً عن تنظيمه. يجب أن يكون اتحاد نهر الراين عقبة في طريق الشمال أو الجنوب. كان في طريق فرنسا، فعكس الإمبراطور مركزه. كانت سياسته بمثابة اليد التي وضعت الإمبراطوريات وحلتها بقوة العملاق وحكمة لاعب الشطرنج. رأى أنه سيتم مزيجاً من القوة لتاج فرنسا من خلال جعل أمراء نهر الراين أكثر قوة، وسيقلل من قوة تاج ألمانيا. في الحقيقة، عندما أصبح النخبون ملوكاً، عندما أصبح الحكام العسكريون والدوقات الولائيون، أمراء، ربحوا في ما يتعلق بالنمسا وروسيا ما خسروه في ما يتعلق بفرنسا. الكثير في المقدمة، القليل في المؤخرة، كانوا ملوكاً لأباطرة الشمال، ولالة لنابليون.

كانت للراين أربع مراحل مختلفة: الأولى، حقبة ما قبل الطوفان، والبراكين. الثانية، الحقبة التاريخية القديمة، التي بها سيزارستون. الثالثة، الحقبة الرائعة التي انتصر فيها شارلمان. الرابعة، الحقبة التاريخية الحديثة، حين تصارعت ألمانيا مع فرنسا، عندما كان نابليون يسيطر على نفوذه لبعض الوقت.

يبدو أنَّ نهر الراين - الفيض الإلهي - هو دفق رمزي. في التواءاته، في مساره، في وسط كل ما يجتازه. إنه صورة الحضارة التي كانت مفيدة جداً، والتي ستظل تقدم خدماتها. يتدفق من كونستانس إلى روتردام، من بلاد النصور إلى قرية الرنجة، من مدينة الباباوات والمجالس والأباطرة إلى طاولة التاجر والمواطن، من جبال الألب العظيمة إلى ذلك الجسم المائي الهائل الذي نطلق عليه اسم المحيط.

=====

الفصل الخامس عشر.

الفأر

فيلميتش. - أسطورة الكاهن والجرس الفضي. - قبر العملاق. - شرح تسمية الفأر. - سكان الأطلال المنعزلون.

هطلت الأمطار لدى مغادرتي كولونيا طوال الصباح. كنت قد اتخذت طريقي نحو أندراخ بقرب "مدينة مانهايم"، بيد أننا لم نتقدم بعيداً في نهر الراين، عندما فجأة - لا أدري بأي تقلبات مفاجئة، فعادة على بحيرة

كونستانس تقوم الرياح الجنوبية الغربية، "فافونيوس"⁵ فيرجيل وهوراس، بجلب العواصف- انفجرت السحابة المعتمدة الهائلة التي تعلو رؤوسنا وبدأت تتفرق في كل الاتجاهات. ظهرت السماء الزرقاء بعد فترة وجيزة، ودفعت الأشعة الدافئة الساطعة المسافرين إلى مغادرة المقصورة والإسراع نحو سطح السفينة. مررنا في تلك اللحظة بقرية قديمة وخلابة على الضفة اليمنى للنهر، تحفها كروم من جهة وأشجار السنديان من جهة أخرى. كانت فيلميتش، التي ارتفعت فوقها، بشكل عمودي تقريباً، إحدى تلك الضفاف الهائلة من الحمم البركانية التي تشبه القبة في أبعادها التي يتعذر قياسها. تقف فوق هذا الركاب البركاني أنقاض قلعة إقطاعية فخمة. على حدود النهر، تدرش مجموعة من الشابات بنشاط، وبيضن ملابس الكتان في أشعة الشمس.

كان المنظر مغرياً جداً. لم أستطع المرور دون زيارة تلك الأطلال، لأنني كنت أعلم أنها فيلميتش، الأقل تبجيلاً والأقل زيارة على نهر الراين.

يصعب الاقتراب منها بالنسبة للمسافر، ويقول البعض إنها خطيرة بالنسبة للريفي، فهي مليئة بالأشباح، وهي موضوع حكايات مرعبة. إنها مليئة باللهب الحي، الذي يختبئ نهاراً في أقبية تحت الأرض، ويصبح مرئياً في الليل من على قمة البرج الدائري. هذا البرج الهائل هو حفرة هائلة تنحدر إلى ما دون مستوى نهر الراين. يدعى سيد فلميش بـ"فالكنشتاين"، - اسم مهلك في الأساطير - ألقى داخل هذه الفتحة بغير انزعاج، بمن شاء: تلك الأرواح المضطربة لأولئك الذين قُتلوا ويسكنون القلعة. في تلك الحفرة، في برج كنيسة فيلميتش، كان هناك جرس فضي منحة من وينيفريد، أسقف ماين، في عام 740، وهو وقت لا يُنسى، عندها كان قسطنطين السادس إمبراطوراً لروما. كان هذا الجرس يدق مرة واحدة لصلاة أربعين ساعة، عندما كان سيد فيلميتش يعاني مرضاً خطيراً. فالكنشتاين، الذي لم يؤمن بالله، والذي كان يشك في وجود الشيطان، ألقى بسبب نقص المال نظرة حسودة على الجرس الوسيم. جعله ينزع من الكنيسة ويؤتى به. تأثر رئيس دير فيلميتش كثيراً من تدنيس المقدسات، وذهب، في مراسم كهنوتية، يسبقه طفلان من الجوقة يحملان الصليب، للمطالبة بالجرس. انطلق فالكنشتاين في نوبة من الضحك، وصاح: "ترغب في الحصول على جرسك، أليس كذلك؟ حسناً، ستحصل عليه، وأضمن أنه لن يتركك أبداً" ربط الجرس عندئذٍ حول عنق الكاهن، وألقي كلاهما في حفرة البرج. وبناءً على أوامر فالكنشتاين، تم إلقاء حجارة كبيرة في الحفرة، ارتفعت بمقدار ستة أقدام. بعد أيام قليلة مرض فالكنشتاين. عند حلول الليل يسمع الطبيب والمنجم اللذان يراقبانه برعب قرع الجرس الفضي القادم من أعماق الأرض. مات فالكنشتاين صباح اليوم التالي. منذ ذلك الوقت، وبصورة منتظمة مع مرور السنين، يُسمع الجرس الفضي يقرع تحت الجبال، ليذكر السكان بذكرى وفاة فالكنشتاين. هكذا تقول الأسطورة.

يوجد على الجبل المجاور، في الجانب الآخر من جرف فلميتش، قبر لعملاق قديم. لأنَّ خيال الإنسان (الذي رأى أن البراكين هي الصائغ العظيم للطبيعة)، قد وضع العملاق أينما انبعث الدخان من الجبال، معطياً لكل جبل إتنا البولي فيموس⁶ الخاص به.

صعدت الأنقاض بين تذكاري فالكنشتاين والعملاق. يجب أن أخبرك أن أفضل طريقة للصعود وضحا لي أطفال القرية، ولأجل هذا المعروف سمحت لهم بأخذ بعض العملات الفضية والنحاسية من محفظتي. لا تزال الأشياء الأكثر روعة هي الأكثر وضوحاً في العالم.

⁵ الاسم الروماني للإله اليوناني زيفيروس، إله الرياح الغربية.

⁶ أحد شخصيات الأساطير الإغريقية.

الطريق منحدر، لكنه ليس خطيرًا على الإطلاق، باستثناء للأشخاص المعرضين للدوار، أو ربما بعد هطول أمطار غزيرة، عندما تكون الأرض والصخور زلقة. هناك شيء واحد مؤكد، وهو أن هذه الأطلال لها ميزة واحدة عن الأخريات على نهر الراين، وهي أنها الأقل ترددًا عليها.

لا يوجد شخص مسؤول يتبعك في صعودك، لا عارض من الأشباح يطلب منك "تذكره"، لا يوقف طريقك أي باب صدى: تتسلق، وتتخطى السلم القديم، وتمسك بحزمة من العشب، لا أحد يساعدك ولا أحد يضايقك. بعد مرور عشرين دقيقة وصلت إلى قمة التل، وتوقفت عند عتبة الأطلال. خلفي سلم شديد الانحدار شكّله عشب أخضر. أمامي منظر جميل. عند قدمي القرية. وراء القرية، نهر الراين، متوج بجبال قاتمة وقلاع قديمة، وحول الجبال وفوقها سماء زرقاء لامعة.

بعد أخذ أنفاسي، بدأت صعود السلم شديد الانحدار. بدت لي في تلك اللحظة القلعة المفككة بهذا الجانب الممزق، الجانب الوحشي الهائل للغاية، بحيث لم يكن من المفترض أن أتفاجأ برؤية شكل خارق للطبيعة يحمل أزهارًا، على سبيل المثال، غيلا، خطيبة بارباروسا، أو هيلدغارد، زوجة شارلمان، تلك الإمبراطورة الودودة، التي كانت على دراية بالفضائل الغامضة للأعشاب والمعادن، والتي غالبًا ما كانت قدمها تطآن الجبال حين تبحث عن النباتات الطبية. بحثت للحظة باتجاه الجدار الشمالي، بنوع من الرغبة الغامضة في رؤية انطلاقة حشد من العفاريت من الحجارة، والذين هم "في جميع أنحاء الشمال"، كما قال العفريت لكاهن ساين، أو كما غنت الثلاث نساء الصغيرات الأغنية الأسطورية "قطفت من على قبر العملاق ثلاث قراصات مكسورة: حولتها في خيط حريري. خذي يا أختي هذه الهدية"، بيد أنني اضطررت لإرضاء نفسي دون رؤية أو حتى سماع أي شيء باستثناء غناء طائر الشحرور، الجاثم على صخرة مجاورة.

دلفت إلى داخل الأطلال. يتميز البرج الدائري رغم تفكك القمة جزئيًا، بارتفاع مذهل. توجد على جميع الجوانب جدران ضخمة بنوافذ محطمة، وغرف بدون أبواب أو أسقف، وأرضيات بدون سلال، وسلالم بدون حجرات.

لطالما أعجبت بالحرص الذي تحافظ وتدافع به العزلة عما تخلى عنه الإنسان ذات مرة. إنها تحصن العتبة بأقوى المتسلقات، نباتات لاسعة، نباتات القراص، العليق والأشواك. تظهر بالتالي المزيد من الأظافر والمخالب أكثر مما هي عليه في حديقة النمر.

الطبيعة جميلة حتى في أغرب نزواتها. تقدم الزهور البرية، بعضها في براعم، والبعض الآخر مزهر، والبعض مكسو بأوراق الخريف، تشابك مذهل جميل في آن. يوجد على هذا الجانب الصغير والتوت القرمزي، وعلى الجانب الآخر الزعرور، الجنطيانا، الفراولة، الزعرور والخوخ الشوكي. إلى يميني ممر تحت الأرض، السقف متساقط. وعلى يساري برج بدون أي فتحة ظاهرة. تحول الآن إلى هاوية. تهب رياح رائعة، ويمكن تمييز سماء رائعة من خلال شقوق الجدار الهائل. أصعد عبر درج مغطى بالعشب إلى قاعة جليلة من نوع ما. لا أرى من خلالها سوى منظرين طبيعيين رائعين، بعض التلال والقرى. أميل نحو المقصورة التي توجد الهوة الجوفية في الجزء السفلي منها. فوق رأسي توجد بقايا مداخل من الجرانيت الأزرق من القرن الخامس عشر. آثار السخام والدخان على الموقد وآثار اللوحات على النوافذ. فوق برج جميل بدون سقف أو سلم، مليء بالنباتات المزهرة التي تنحني للأمام لتتضرع إلي. أسمع ضحكات غاسلات الملابس على نهر الراين. نزلت إلى قاعة منخفضة، لا شيء، فقط آثار الحفر على الرصيف، نتيجة بحث الريفيين عن كنوز من المفترض أنها حُبئت بواسطة العفاريت.

توجد قاعة منخفضة أخرى بها فتحة مربعة في المنتصف تطل على قبو. حُطَّ الاسمان فيدوفوس وكوغورجا على الحائط. كتبت اسمي بجانبهما بقطعة مسنونة من البازلت. هناك قبو آخر، لكني لا أرى فيه شيئاً. نظرت مرة أخرى إلى الخليج، يتعذر الوصول إليه. يخترقها شعاع الشمس. يقع هذا المكان تحت الأرض أسفل ساحة الدونجون الكبيرة التي تحتل الزاوية المقابلة للبرج الدائري. يجب أن تكون سجن البرج، حجرة واسعة تواجه نهر الراين. أرى ثلاث مداخل، كُسرت إحداها لأعمدة صغيرة على ارتفاعات مختلفة. ثلاثة طوابق منهارة تحتي مباشرة، وفي الأسفل قبوان مقنطران. هناك بعض الفروع الميتة فوق أحدهما، وعلى الآخر، غصنا لبلاب متموجان برشاقة. نزلت واكتشفت أقبية مبنية على الصخور البازلتية للجبل نفسه. توجد آثار دخان. في الحجرة الكبيرة الأخرى التي دخلت إليها في البداية -والتي لا بد أنها كانت الفناء- بالقرب من البرج الدائري، يوجد جص أبيض على الحائط مع بقايا لوحة، وهاتان الشفرتان مرسومتان بالأحمر: 23 - 18 - (كذا). ذهبت حول الجزء الخارجي من القلعة، متابعاً خندقاً. حاولت التسلق، فوجدت أنها ليست مهمة سهلة. من الضروري التسلق من أجمة إلى أجمة فوق الهلوية العميقة إلى حد ما. لا يوجد أثر لباب أو فتحة في أسفل البرج العظيم. هناك بعض بقايا الرسم على الميكولات⁷. الريح تقلب أوراق دفاتري وتمنعني من الكتابة. سأدخل إلى الأطلال مرة أخرى. أنا أفعل ذلك. أكتب على بروز أخضر صغير يقترضني إياه الجدار القديم. نسيت أن أخبرك أن هذا الأطلال الضخمة تسمى الفأر. سأخبرك بقصة هذه التسمية: - في القرن الثاني عشر لم يكن هناك من شيء هنا سوى منطقة إدارية صغيرة، تمت مراقبتها، وغالباً ما تعرضت للاعتداء من قبل قلعة قوية تسمى القط. كونو دي فالكينشتاين، الذي ورث هذه البلدة النافهة، هدمها وبنى قلعة أكبر بكثير من المجاورة، معلناً أنه "من الآن فصاعداً، يجب أن يكون الفأر هو من سيلتهم القطة".

كان محققاً. رغم أن الفأر أصبح الآن في حالة خراب، لكنه أم راعية جديرة بالخشية، بكل كتل الحمم البركانية والبازلت، وأحشاء البركان الخامد، المدعم على ما يبدو بالعجرفة. لا أعتقد أن أي شخص أتاحت له الفرصة ليضحك على ذلك الجبل الذي ولد الفأر.

تجولت حول الأطلال، أولاً في غرفة واحدة، ثم في أخرى، معجباً ببرج جميل ذات مرة. نزلت الآن إلى كهف، وتلمست طريقي عبر ممر تحت الأرض، ثم وجدت نفسي أنظر خلال فتحة تطل على نهر الراين. بدأت الشمس تختفي أخيراً، وهو وقت الأشباح والأطياف. كنت لا أزال في الأطلال. في الواقع، بدا لي كما لو أنني أصبحت تلميذاً جامحاً. تجولت في كل مكان، صعدت كل ركام. قلبت الحجارة الكبيرة. أكلت الثوت البري. حاولت بضجيجي إخراج السكان الخارقين من مخابئهم. وبينما كنت أتجول وسط العشب الكثيف والأعشاب، استنشقت تلك الرائحة اللاذعة لنباتات الخرائب القديمة التي أحببتها كثيراً في طفولتي.

عندما انحدرت الشمس خلف الجبال، فكرت في المغادرة. أذهلني حينها شيء غريب يتحرك بجانبني. انحنيت نحو الأمام. كانت سحلية ذات حجم غير عادي، يبلغ طولها حوالي تسع بوصات، ولها بطن هائل، وذيل قصير، ورأس مثل أفعى وسوداء مثل الكهرمان. كانت تنزلق ببطء نحو فتحة في جدار قديم. كانت هي الساكن الغامض المنعزل للأطلال، حيوان حقيقي ورائع في ذات الوقت، سمندل نظر إلي بهدوء وهو يذلف إلى جحره.

⁷ فتحة بين الحواف الداعمة لحاجز بارز أو قبو البوابة، والتي من خلالها يمكن إسقاط الحجارة أو الأشياء المحترقة على المهاجمين.

الهوامش:

- 1- الاسم الروماني للإله اليوناني زيفيروس، إله الريح الغربية.
- 2- أحد شخصيات الأساطير الإغريقية.
- 3- فتحة بين الحواف الداعمة لحاجز بارز أو قبو البوابة، والتي من خلالها يمكن إسقاط الحجارة أو الأشياء المحترقة على المهاجمين.

الفصل السادس عشر

الفأر.

المخطط الهائل. - دوقية السيد دي ناسو. - مغامرات الريف الصبانية: عاقبتها. - المراكبي.

لم أتمكن من مغادرة الأطلال. بدأت في النزول بضع مرات، وصعدت مرة أخرى. الطبيعة، مثل الأم المبتسمة، تدلنا في أحلامنا ونزواتنا.

راودتني لدى مغادرتي الفأر فكرة أن أضع أذني على قبو البرج الكبير. فعلت ذلك، واثقاً أنني سأسمع بعض الضوضاء، لكنني بالكاد داهنت نفسي بأن جرس وينفرد سيتلطف ويوقظ نفسه من أجلي. في تلك اللحظة، آه من عجائب الدنيا - سمعت - نعم، سمعت بأذني، صوتاً معدنياً غامضاً، وطنياً غير واضح للجرس، ينزلق عبر الفتحة، ويبدو قادماً من أسفل البرج. أعتزف أن هذا الضجيج الغريب نقل إلى ذاكرتي بوضوح خطاب هاملت إلى هوراشيو. لكن، تم استدعائي فجأة من عالم الوهم إلى عالم الواقع. سرعان ما اكتشفت أنها ترنيمة أفي ماريا لقريبة ما، تطفو مع نسيم المساء. لا يهم. كل ما كان علي فعله هو التصديق والقول إنني سمعت الجرس الغامض لفيلميش يرن تحت الجبل.

لدى مغادرتي الخندق الشمالي، الذي أصبح الآن وادياً شائكاً، ظهر قبر العملاق، فجأة. تبرز من النقطة التي وقفت فيها الصخور عند قاعدة الجبل بالقرب من نهر الراين، المظهر الجانبي الضخم للرأس، معلق إلى الورااء بفم مفتوح. إن المرء على استعداد للاعتقاد أن العملاق، الذي وفقاً للأسطورة، يرقد هناك محطماً تحت وطأة الجبل، كان على وشك رفع الكتلة الهائلة. وأنه، وعلى رأسه الذي يظهر بين الصخور، وضع أبولو أو القديس ميخائيل قدمه على الجبل

وسحق الوحش الذي مات في هذا الوضع، مطلقاً صرخة مخيفة ضاعت في ظلام أربعين عصرًا، لكن الفم لا يزال مفتوحًا.

يجب القول إنه لا العملاق ولا الجرس الفضي ولا شبح فالكنتشتاين يمنع الكروم والأعشاب الضارة أن تتسلق من شرفة إلى شرفة بالقرب من الفأر. والأمر أسوأ بكثير بالنسبة لأشباح بلاد العنب هذه، كون الناس لا يترددون في أخذ الكروم التي تتجمع حول مأواهم المفكك للحصول على ما يكفيهم لصنع النبيذ.

لكن الغريب، حتى الأكثر عطشًا بينهم، يجب أن يحذر حين يقطف الثمار، فهي محرمة عليه. في فيلميتش، نحن في دوقية السيد دي ناسو، وقوانين ناسو صارمة في ما يتعلق بالمغامرات الصبيانية الريفية. وإن قبض على الجانح، فإنه يُجبر على دفع مبلغ معادل لأعمال النهب أو "المتعة" لجميع أولئك الذين حالفهم الحظ للهروب. منذ فترة وجيزة قام سائح إنجليزي بقطف حبة برقوق وأكلها، فكان عليه أن يدفع خمسين فلورين ثمنًا لها.

كنت أرغب في الوصول إلى سانت غور، التي تقع على الضفة اليسرى، أعلى من فيلميتش بنصف فرسخ. قام مراكبي من القرية بنقلي عبر نهر الراين، ووضعني بتهديب في بيت ملك بروسيا، لأنّ الضفة اليسرى مملوكة لملك بروسيا. أعطاني الرجل الصالح عندما تركني توجيهات بلغة مركبة، نصفها ألمانية، ونصفها غاليشية، في ما يتعلق بالطريق الذي يجب أن أتبعه. لا بد أنني أساءت فهمه، فبدلاً من أن أسلك الطريق على طول النهر، ذهبت عبر الجبل، وهكذا تهمت قليلاً.

بينما كنت أعبّر السهول الحمراء العالية، التي تهب عليها رياح المساء الصاخبة، ظهر على يساري وادٍ فجأة. دلفت إليه، وبعد نزول شديد الانحدار على طول درب يشبه الدرج، مكون من ألواح عريضة، رأيت نهر الراين مرة أخرى. جلست، كنت متعبًا.

لم يختف ضوء النهار بالكامل بعد، لكن الوادي الضيق ووديان الضفة اليسرى كانوا مظلمين. يتراجع الضوء تجاه التلال السوداء. يطفو ضوء وردي رائع، يعكسه غروب الشمس الأرجواني، فوق الجبال على الجانب الآخر من الراين، وعلى الخطوط العريضة الغامضة للأطلال التي ظهرت في كل مكان. تحتي، في الهاوية، كان نهر الراين، الذي وصلنتي همماته، يختبئ تحت غطاء من الضباب الأبيض، اخترقته قمة برج قوطي نصفه مغمور في الضباب. كانت المدينة هناك بلا شك يخبئها الضباب. ميزت على يميني، بثمان ميل إلى الأسفل، سقف برج رمادي كبير مغطى بالعشب، يقف بفخر على جانب الجبل، دون تحصينات أو سلال، من الواضح أنه مفكك. سمعت أعلى رأسي أصوات وخطوات عابري الطريق، ورأيت ظلالهم تتحرك في الظلام. اختفى الضوء الوردي.

بقيت هناك طويلاً، أستريح متأملاً. شاهدت بصمت الوقت الكئيب يمحي ببطء الغشاوة والضباب، والأشكال الرائعة الحدادية التي اتخذتها خطوط الأشياء المختلفة. بدت بعض النجوم وكأنها تسامر الكفن الأسود ليلاً في قمة جانب من السماء، والكفن الأبيض للشفق على الجانب الآخر.

توقفت تدريجياً الخطوات والأصوات في الوادي. هبت الريح، ومعها حفيف العشب اللطيف، الذي يشارك في محادثة عابر السبيل ويبقى بصحبته. لم يصدر أي ضجيج من المدينة غير المرئية. بدا أنّ الراين نفسه مسترخ. غزت سحابة مشؤومة شاحبة المساحة الهائلة بين الشرق والغرب. تلتئم النجوم الواحدة تلو الأخرى. وفوقي واحدة من تلك السماوات الشاحبة، يحلق من خلالها، مرئياً فقط للشاعر، ذلك الخفاش الذي يحمل على جسده كلمة حزن.

هب نسيم فجأة، وتمزق الضباب، وظهرت الكنيسة بوضوح. وبانت كتلة مظلمة من المنازل، مثقوبة بألف نافذة مضاءة، أسفل الهاوية، من خلال الهوة التي صنعت في الضباب. كان القديس غور.

الفصل السابع عشر

سانت غوار

القط. - الجزء الداخلي. - صخور لوريلي الرائعة - الوادي السويسري. - فتاة الفاكهة. - ريتشينبيرغ، - قرية الحلاقين. - الأسطورة. - راينفيلس. - أوبرفيزل. - هوسار "الجندي" الفرنسي. - عشاء ألماني.

من المقبول للغاية قضاء أسبوع في سانت غوار، وهي بلدة صغيرة أنيقة تقع بين قلعتي القط والفار. يقع الفار نحو اليسار، نصفه مغطى بضباب نهر الراين. وإلى اليمين يوجد القط، برج محصن ضخم، تقع في قاعدته قرية سانت غوارسهاوزن الخلابة. تبدو القلعتان الهائلتان وكأنهما تلقيان نظرات غاضبة على جميع أنحاء البلاد. تعرض نوافذهما المتهمة أكثر الجوانب بشاعة. يوجد القصر القديم الشبهي الضخم لولاية هسن في المقدمة، على الضفة اليمنى للنهر، وعلى استعداد فيما يبدو لتحريض الخصمين.

يشبه نهر الراين في سانت غوار، بسدوده الداكنة، وظلاله ومياهه المتموجة، بحيرة جورا أكثر مما يشبه النهر.

ستكون لدينا إن بقينا في المنزل طوال اليوم، إطلالة على نهر الراين، مع عوامات تطفو على سطحه. هنا مراكب شراعية، وهناك قوارب بخارية، تصدر لدى مرورها ضوضاء تشبه صوت كلب ضخم يسبح. في البعد، على الضفة المقابلة وتحت ظلال بعض أشجار الجوز الجميلة، نرى جنود دي ناسو، مرتدين معاطف حمراء وسراويل بيضاء، يؤدون تدريباتهم، بينما تضرب آذاننا دحرجة برميل كرز صغير. تمر تحت نوافذنا نساء سانت غوار، بقبعاتهن الزرقاء السماوية، جيئةً وذهاباً، ونسمع ترثرات وضحكات أطفال يسلمون أنفسهم على حافة النهر.

يمكننا، إن خرجنا، عبور نهر الراين مقابل ستة سوسات، ثمن الباص الباريسي العمومي. ثم يمكننا تسلية أنفسنا من خلال زيارة القط، وهي أطلال مثيرة للاهتمام. تهدم الداخل بالكامل. تُستخدم الغرفة السفلية من البرج حالياً كمخزن. تلتف حوله العديد من أشجار العنب، بل وتنمو على أرضية رواق اللوحات. في غرفة صغيرة، الغرفة الوحيدة التي بها نافذة وباب، ثبتت لوحة بوهدان خميلينتسكي على الحائط، وعلقت لوحتان أو ثلاث للأمراء الحاكمين حولها.

تلتقي العين من على قمة القط بخليج الراين الشهير، الذي يُطلق عليه الضفة. لا يوجد بين الضفة والبرج المربع في سانت غوارسهاوزن سوى ممر ضيق، حيث يقع الخليج في جانب، والصخرة على الجانب الآخر. وراء الضفة بقليل، في منعطف بري ووحشي، تنحدر نحو الراين صخرة لوريلي الرائعة، بمقاعد الغرانيتية الألف، التي تمنحها مظهر سلم منحدر. هناك صدى معروف هنا، يستجيب سبع مرات لكل ما يقال وكل ما يُغنى. لا أرغب في الانتفاص من شهرة الصدى، لكن لم يتعد التكرار خمس مرات. من المحتمل أن حورية لوريلي الجبلية، التي تودد إليها في

السابق العديد من الأمراء والكونتات الأسطوريين، بدأت تشعر بالإرهاق وغلظ صوته. ليس للحرورية المسكينة في الوقت الحاضر أكثر من معجب واحد، صنع لنفسه على الجانب الآخر من الراين تجويفين في الصخور، حيث يقضي أيامه في العزف على القرن، وتفريغ بندقيته. إنَّ الرجل الذي يمنح الصدى الكثير من العمل، هو هوسار "جندي" فرنسي قديم شجاع. تأثير صدى لوريلي غير عادي حقًا. يُحدث قارب صغير يعبر الراين في هذا المكان ضجيجًا هائلًا. وإن أغلقنا أعيننا، سنصدق أنها سفينة من مالطا، بها خمسون مجذافًا كبيرًا، يحرك كلاً منها أربعة من رقيق السفن.

يجب علينا قبل مغادرة سانت غوارسهاوزن، أن نذهب ونرى، في شارع قديم موازٍ للراين، منزلًا صغيرًا ساحرًا من عصر النهضة الألمانية. ثم ننتقل إلى اليمين بعد ذلك، ونعبر جسرًا لندخل، وسط ضوضاء طاحونة مائية، إلى الوادي السويسري، وهو واد رائع، ألبيني تقريبًا، يتكون من تل بطرسبرغ المرتفع، ويجاور حافة منحدر لوريلي. .

الوادي السويسري منتزه رائع بلا شك. نصعد، وننزل، نلتقي بقرى عالية، ونغرق في ممرات مظلمة ضيقة، رأيت إحداها وقد مزقتها مؤخرًا أنياب خنزير بري. نتقدم على طول الجزء السفلي من الوادي، حيث تشبه الصخور من كل جانب جدران العمالقة. إن اتجهنا نحو الطريق الآخر الذي يزخر بالمزارع والمطاحن، سيبدو كل ما تراه العين مرتبًا ومجمعًا للرسام بوسان لإدخاله في زاوية صورته الطبيعية. راع نصف عارٍ، في حقل مع قطيعه، صفيير رضا، عربة تجرها ثيران، وفتيات جميلات حافيات الأقدام. رأيت شخصية ساحرة حقًا، كانت تجلس بقرب النار تجفف ثمارها. رفعت عينيها الزرقاوين الكبيرتين نحو السماء، عينا مثل الألماس، ووجه مغمق بفعل حرارة الشمس. عنقها المغطى جزئيًا بياقة، به آثار الجدي، وأسفل ذقنها متورم. مع هذا الانقراض، المصاحب للجمال، يمكن للمرء أن يتخذها كمعبود هندي، يجلس بالقرب من مذبحه.

عبرنا مرجًا. تجري أرانب الوادي هنا وهناك، نرى فجأة، على قمة تل، أطلالًا رائعة. إنها ريتشينبيرغ، التي كانت خلال حروب "إعلان الحقوق" في العصور الوسطى، الأكثر خطرًا على السادة اللصوص الذين حملوا لقب "بلاء البلاد".

تسبب القرية المجاورة الرثاء، وكان لدى الإمبراطور سببًا لاستدعاء اللص إلى حضرته، لكن الرجل الحديدي الذي كان آمنًا في منزله الغرانيطي، لم يلتفت إليه، بل استمر في سلبه، وعربدته ونهبه. عاش محرومًا كنسيًا، أدانه الإله، وتتبعه الإمبراطور، حتى نزلت لحيته البيضاء على بطنه. دخلت ريتشينبيرغ. لا يوجد شيء في كهف اللصوص الهوميروسيين سوى الأعشاب البرية. هدمت جميع النوافذ. فقط أبقار ترعى حول الانقراض.

توجد خلف تل ريتشينبيرغ أنقاض مدينة اختفت تقريباً، حملت اسم "قرية الحلاقين". ها هي قصتها:

أراد الشيطان أن ينتقم لنفسه من فريديك بربروسا لحملاته الصليبية العديدة، فخطرت له فكرة أن يخلق لحية الصليبي. أخذ الترتيبات اللازمة كي ينام الإمبراطور بربروسا لدى مروره عبر باخاراخ، وعندها، يقوم أحد حلاقي القرية العديدين بخلق لحيته. ذهبت جنية مخادعة، صغيرة مثل الجندب، إلى عملاق، وطلبت منه أن يقرضها كيساً. وافق العملاق، بل وعرض متلطفًا مرافقتها. أعربت له عن سعادتها الشديدة. عندما سارت الجنية بجانب هذا المخلوق الضخم، تضخمت هي نفسها إلى كتلة مقبولة. أخذت لدى وصولها إلى باخاراخ الحلاقين النائمين واحداً تلو الآخر، ووضعتهم في كيس. طلبت بعد ذلك من العملاق أن يضعها على ظهره وأن يأخذها بعيداً، لا يهم أين يضعها. كان الليل قد حل، فلم يدرك العملاق ما فعلته المرأة العجوز، أطاعها وخطى خطواته الكبيرة المعتادة. راح حلاقو باخاراخ المتكدسون فوق بعضهم البعض بالاستيقاظ، وبدأوا يتحركون داخل الكيس. زاد العملاق من سرعته بسبب الخوف. بينما كان يعبر ريتشينبيرغ، قام أحد الحلاقين، الذي سحب شفرة حلاقة في جيبه، بعمل ثقب كبير في الكيس لدرجة أن جميع الحلاقين سقطوا وهم يصرخون بشكل مخيف. العملاق المصعوق، الذي ظن أن لديه عشاً من الشياطين على ظهره، أنقذ نفسه بواسطة ساقيه الهائلتين. عندما وصل الإمبراطور إلى باخاراخ، لم يكن هناك حلاق في المكان. ولما جاء بعل زبوب⁸ ليرى إن كان الأمر قد تم، جثم غراب على باب المدينة، وقال لسمو إبليس:

- "لديك يا صديقي في منتصف وجهك شيء كبير جداً لدرجة أنك لا تستطيع رؤيته حتى في المرأة، إنه الازدراء".

منذ ذلك الوقت لم يعد هناك حلاق في باخاراخ. ومن المستحيل حتى يومنا هذا العثور على متجر تابع لهذه الأخوية. أما الذين سرقتهم الجنيات، فقد استقروا حيث سقطوا، وبنوا بلدة أطلقوا عليها اسم "قرية الحلاقين". وهكذا احتفظ الإمبراطور فريديك الأول بلحيته ولقبه.

إلى جانب الفأر، والقط، ولوريلي، والوادي السويسري وريتشينبيرغ، تقع أيضاً بالقرب من سانت غوار القلعة الهائلة التي اهتزت أمام لويس الرابع عشر، وانهارت تحت حكم نابليون، راينفيلس.

إنها جبل محفور من جميع الاتجاهات، ومتوج بالأنقاض. هناك طابقان أو ثلاثة طوابق من المساكن والدهاليز تحت الأرضية، التي تبدو وكأنها جوفت بفعل حيوانات خلد ضخمة. قاعات ضخمة ذات فتحات مقوسة بعرض خمسين قدماً، سبع زنانات مملوءة بالماء الأسن الذي يعطي صوتاً منخفضاً وميتاً إن تم إلقاء حجر فيه. صخب طواحين المياه في الوادي الصغير خلف

⁸ اسم آخر لإبليس.

القلعة، ومن خلال الفتحات الموجودة في الجدار الأمامي يظهر نهر الراين، مع بعض الزوارق البخارية التي تبدو من هذا الارتفاع كسمكة خضراء كبيرة ذات عيون صفراء، مدربة على حمل الرجال والعربات على ظهرها. ثم القصر الإقطاعي لولاية هيسن، الذي تحول إلى كومة هائلة من الأنقاض. وبه فتحات للمقاليع والمدافع تشبه أوكار الوحوش البرية في المدرج الروماني القديم. ينمو العشب في كل شق. يمنح البازلت والأردواز الخشن الحواف المنحنية للأسقف المقوسة شكل المناجل والفكين المفتوحين. ها هي راينفيلس. يمكن رؤيتها مقابل سوسين. تبدو هذه الأطلال وكما لو أنَّ الأرض اهتزت من تحتها. لكنه لم يكن زلزالاً. كان نابليون هو من مر بهذه الطريقة. فُجِّر راينفيلس في عام 1807. من الغريب القول إنَّ الهيكل كله انهار، عدا جدران الكنيسة الأربعة. لا يمكن للمسافر زيارتها دون إبداء مشاعر الحزن، حفظت دار السلام هذه وسط الدمار المخيف لهذه القلعة. حُطت هذه النقوش الجنائزية على حُطام النوافذ، اثنان على كل نافذة:

" القديس فرنسيس دي باولا، 1500"، "القديس فرنسيس، 1526"، "القديس دومينيك [مطموس]"، "القديس ألبرت، 1292"، "القديس نوربرت، 1150"، "القديس برنارد، 1139"، "القديس برونو، 1115"، "القديس بنديكتوس، 1140"، هناك اسم طمس. وصلنا بعد هذا الصعود في العصور المسيحية من هالة إلى هالة، إلى هذه الخطوط الملوكية، "القديس باسيليوس الكبير، قيصرية كبادوكيا، سيد الرهبان الشرقيين، 372". نُقش هذان الاسمان بجانب باسيليوس الكبير، تحت باب الكنيسة: "القديس انطونيوس الكبير، والقديس بولس الناسك". هؤلاء جميعاً ثروات وكنوز جديرة بالاحترام.

أعلنت "الجريدة الرسمية الفرنسية"، المطبوعة في متحف اللوفر، في 23 يناير 1693، أنَّ "لاندغريفية هسن كاسل قد استحوذت على مدينة سانت غوار، وراينفيلس التي تنازل له عنها لاندغريف⁹ فريدريك هسن، الذي قرر إنهاء أيامه في كولونيا". يوضح عدد الصحيفة التالي، المؤرخ في الخامس من فبراير، حقيقة أنَّ "خمسائة فلاح يعملون مع الجنود في تحصينات راينفيلس". ثم ورد في الصحيفة بعد أسبوعين، أنَّ "كونت ثينغن بيني حصوناً ويعلق السلاسل على نهر الراين". لماذا تبعد هذه الأرض؟ لماذا يعمل هؤلاء الفلاحون جنباً إلى جنب مع الجنود؟ لِمَ التسرع في بناء هذه الحصون والسلاسل؟ الجواب هو أنَّ لويس العظيم قد عبس. الحرب مع ألمانيا ستبدأ. إنَّ راينفيلس اليوم، التي لا يزال يُرى فوق بابها التاج الدوقي للاندغريف، مزيّناً باللون الأحمر، هي ببساطة مجرد ملحق خارجي لمزرعة. ينمو عدد

⁹ يشير اللقب إلى الكونت الذي يتميز بتبعية مباشرة للإمبراطورية.

قليل من الكروم هنا وهناك، وهناك عدد قليل من الماعز يرعى. تقدم هذه الأطلال المحددة بنوافذها المفتوحة مقابل السماء، مشهدًا رائعًا في المساء.

نصعد الراين مجددًا، على بعد حوالي ميل واحد من سانت غوار (الميل البروسي، مثل الليغوا الإسبانية، وزحف الأتراك لساعة، يساوي فرسخين فرنسيين) نقرب فجأة لدى فتحة بين جبلين، من بلدة إقطاعية رائعة في وسط تل، ومنحدرة نزولاً إلى النهر، مع شوارع قديمة مثل التي نراها فقط في باريس في زخارف الأوبرا، وأربعة عشر برجًا مسورًا، وكنيستين كبيرتين من أنقى العصور القوطية. إنها أوبرفيلز، واحدة من أكثر المدن على نهر الراين التي خاضت حروبًا. ثقتب الجدران القديمة لأوبرفيلز بطلقات المدافع والبنادق. هناك يمكننا فك رموز طرس¹⁰ الطلقات الحديدية الكبيرة لرؤساء أساقفة تريفييس، وبيسكاني¹¹ لويس الرابع عشر، وزخيرتنا الثورية. إنَّ أوبرفيلز اليوم ليست أكثر من مجرد جندي محنك تم تحويله إلى قاطف عنب. بالمناسبة، نبيذها الأحمر ممتاز.

توجد في أوبرفيلز، مثل جميع مدن نهر الراين تقريبًا، أطلال قلعة على قمة الجبل، شوينبيرغ، وهي واحدة من أكثر الأطلال روعة في أوروبا. قلعة شوينبيرغ كانت المكان الذي عاشت فيه الأنسات السبع، المرحات الصلبات، اللاتي نراهن اليوم من خلال فتحات قلعتهن، وقد تحولن إلى سبعة صخور في وسط النهر.

الرحلة من سانت غوار إلى أوبرفيلز هي الأكثر جاذبية. تمتد بنا حافة الطريق على نهر الراين، الذي يضيق هنا فجأة ويبدو كما لو أنه مختنق بين التلال العالية. البقعة مهجورة وصامتة وبرية. أكوام كبيرة من الإردواز، نصفها ممزق، تخرج من التيار وتغطي الضفة بأكوام من القطع المتدرجة العملاقة. بين الحين والآخر، يمكنك إلقاء نظرة خاطفة على نوع من العنكبوت الهائل المكون من قضيبين مستعرضين، متقاطعين، وموحدين مرة أخرى في مركزهما، ومثبتان عند المركز بواسطة عقدة كبيرة متصلة برافعة، وتغوص أرجله الأربع في الماء. إنه عنكبوت حقًا. في أوقات معينة، تتحرك الرافعة الغامضة وسط العزلة والصمت، وتنهض الحشرة البشعة ببطء، ممسكة بشبكة بين مخالبها، حيث تقفز وتتلقى سمكة سلمون فضية وناعمة.

عدنا مساءً إلى سانت غوار، بعد أن أخذنا إحدى تلك النزعات المبهجة التي تميل إلى فتح كهوف المعدة العميقة، لنجد أعلى طاولة طويلة محاطة بالمدخنين، عشاء ألماني ممتاز، به طيور حجل أكبر من الدجاج. إننا نوظف قوتنا بشكل رائع، أي إن كانت شهيتنا جيدة لدرجة تسمح لنا بالتغاضي عن بعض اللقاءات الغريبة التي تحدث غالبًا على نفس الطبق، على سبيل المثال، بطة

¹⁰ صفحة من كتاب محي ما كتب عليها ليكتب عليها غيره.

¹¹ مواطن مقاطعة بيسكاي، إسبانيا.

مشوية مع فطيرة تفاح، أو رأس خنزير بري مع المعلبات. سمعنا قبل اقتراب العشاء من نهايته مباشرة، صوت بوق يختلط بدوي بندقية، فجأة.

سارعنا نحو النافذة. إنه هوسار فرنسي، يوقظ صدى القديس غوار من سباته. صداه الذي لا يقل روعة عن صدى لوريلي. كل طلقة تساوي دوي مدفع، يتردد صدى كل نفخة في البوق بجلاء فريد في الظلام العميق للوادي. إنها سيمفونية رائعة، تبدو ساخرة بينما هي تسعدنا. نظرًا لأنه من المستحيل تصديق أن هذا الجبل الضخم يمكن أن ينتج مثل هذا التأثير، أصبحنا بعد مرور بضع دقائق، مخدوعين بالوهم، وسيكون أخطر مفكر على استعداد ليقسم أنه في تلك الظلال، وتحت بعض الأدغال الخيالية، يسكن منعزلًا، كائن خارق للطبيعة، نوع من الجنيات، تيتانيا¹²، تسلي نفسها من خلال محاكاة ساخرة لموسيقى البشر، وترمي نصف جبل في كل مرة تسمع فيها دوي بندقية.

سيصير التأثير أكبر إن تمكنا أن ننسى لفترة قصيرة أننا على نافذة نزل، وأن هذا الإحساس غير العادي قدم لنا كطبق حلوى إضافي. لكن، مر كل شيء بشكل طبيعي. انتهى العرض، ودخل نادل النزل حاملًا طبقًا من القصدير، قدمه إلى النزلاء. ثم انتهى كل شيء، وغادر كل منهم بعد أن دفع ثمن صداه.

الفصل الثامن عشر

--

باخاراخ

فورستبرغ، سونيك، وهامبرغ. - أوروبا. - عالم صغير سعيد. - المقبرة.

هذه واحدة من أقدم وأجمل المدن غير المعروفة في العالم. على نافذتي أقفاص مليئة بالطيور. ويتدلى من السقف فانوس قديم الطراز، وعلى الزاوية شعاع شمس غير محسوس، لكنه يتقدم تدريجياً نحو طاولة بلوط قديمة.

مكثت في باخاراخ لمدة ثلاثة أيام. وبها، بلا استثناء، المساكن الشعبية الأكثر عتاقة التي رأيتها على الإطلاق. قد يتخيل المرء أن عملاقاً ما، بائع بريك براك¹³، أراد فتح متجر على نهر الراين، فأخذ جبلاً ليضعه دكاناً، وملاه من الأسفل إلى الأعلى، بذائقة عملاقة، بأكوام هائلة من أشياء مثيرة للفضول.

¹² ملكة الجنيات في مسرحية وليام شكسبير حلم ليلة منتصف الصيف.

¹³ تحف صغيرة تستخدم عادة للزينة.

يبدأ هذا تحت الراين نفسه. تظهر فوق الماء مباشرة صخرة بركانية، وهي وفقًا للبعض، عبارة عن شاهد عمود حجري سلتي. ووفقًا لآخرين، هي مذبح روماني. ويسميتها أصحاب وجهة النظر الأخيرة آرا باكي. ثم، على الضفة، اثنان أو ثلاثة من هياكل السفن القديمة التي أكلتها الديدان، قسمت إلى جزئين وثبتت على نهايتها لتكون بمثابة أكواخ للصيادين. خلف هذه الأكواخ، هناك سياج، محاط بأربعة من الأبراج الأكثر تصدعًا، وثقوبًا، وانهيارًا التي رأها الإنسان على الإطلاق. ثم، قبالة هذا السياج المسور، منازل حديثة ذات نوافذ وشرفات. على مسافة أبعد، عند سفح الجبل، هناك فوضى لا يمكن وصفها من الصروح المضحكة، والأبراج الحمقاء، والواجهات المحدبة، والجملونات البغيضة، التي تظهر على سلالها كتلة من القضبان نبتت على عدة درجات مثل نبات الهليون. أرابيسك رقيق منحوت من عوارض ضخمة، وأدوار علوية حلزونية، وشرفات مفتوحة، ومداخل أخذت شكل الأكاليل والتيجان، وملينة بحكمة بالدخان، ديك رياح¹⁴ حديدي أحمر، وهو ليس بديك رياح على الإطلاق، لكنه حروف كبيرة مقطوعة من المخطوطات القديمة، وتزعق مع الريح. كان فوق رأسي حرف الراء، من بين أشياء أخرى، وكان يكرر اسمه باستمرار، راء راء راء راء راء.

يحتوي هذا المزيج الرائع مربعًا - مربعًا ملتفًا - من كتل من منازل سقطت مصادفة من السماء، وبه خلجان وشعاب وجزر صغيرة ونبوءات أكثر من خليج النرويج.

على أحد جانبي هذا المربع يوجد مبنيان من متعددات الأسطح، يتألفان من هياكل قوطية، منتفخة، مائلة، مكشورة، تمسك بوقاحة بعمودياتها المتعارضة مع جميع قوانين الهندسة والتوازن. توجد على الجانب الآخر كنيسة رومانية رائعة ونادرة، تأخذ بواباتها شكل المعينات، يعلوها برج حرس عسكري مرتفع، لمحاربها رواق مكون من أقواس صغيرة، بأعمدة رخامية صغيرة، كان مرصعًا من جميع الجوانب بأضرحة عصر النهضة، مثل كأس أحجار نفيسة. نرى أعلى الكنيسة البيزنطية، أنقاض كنيسة أخرى من القرن الخامس عشر، ليس بها أبواب أو سقف أو زجاج، هيكل عظمي رائع مرسوم بفخر في السماء. في النهاية، متوجةً للكل، على قمة الجبل، أطلال قلعة مغطاة باللباب، قلعة ستاليك، مقر إقامة الكونت بالاتين في القرن الثاني عشر. هذه هي باخاراخ.

يسكن هذه المدينة الخيالية القديمة، التي تكثر فيها الرومانسية والأساطير سكانًا - كبار وصغار، من الطفل وحتى الجد، ومن الفتاة الصغيرة وحتى السيدة العجوز - تعكس ملامحهم، وطريقة سيرهم، شيء من القرن الثالث عشر. نرى من قمة القلعة، منظرًا رائعًا، ونكتشف من خلال فتحة في الجبل أطلال خمس قلاع أخرى، نجد على الضفة اليسرى للنهر، فورستنبرغ، سونيك، وهامبيرغ. ناحية الغرب، على الجانب الآخر من نهر الراين نجد، غوتنفيلز، الملينة بذكريات غوستافوس أدولفوس. باتجاه الشرق، فوق وادي ويسبيرثال الرائع، القصر، حيث رفض غير المضيف "سيبو دي لورتنش" فتح الباب أمام العفاريث في الليالي العاصفة. المناظر الطبيعية حول باخاراخ ذات طابع وحشي. تعد الأطلال المغطاة بالغيوم، والصخور الحادة، والجدول الشرسة، من الأجزاء المتناغمة لهذه المدينة القديمة الصارمة، التي كانت رومانية وقوطية، وترفض أن تصبح حديثة. من الغريب القول إنَّ هناك حزامًا من الصخور يحيط بها من كل جانب، يمنع القوارب البخارية من الاقتراب، وبالتالي يُبقي الحضارة على الخليج. لا لمسة ناشزة للواجهات البيضاء ذات المصاريح الخضراء تزعج الانسجام الشديد للكل. كل شيء في انسجام تام. يبدو أنَّ اسم باخاراخ نفسه، هو صرخة قديمة لسكير باخوسي، تم تعديلها لتلائم يوم الاجتماع الخاص بالبحر.

¹⁴ أداة تظهر اتجاه الرياح، وتصنع على شكل ديك غالبًا.

بصفتي مؤرخًا مخلصًا، لا بد أن أذكر أنني رأيت بائعة قبعات عصرية، بشرائط وردية وقلنسوة بيضاء، تحت برج قوطي أسود مخيف من القرن الثاني عشر.

يدور نهر الراين بفخر حول باخاراخ. يبدو أنه يحب مدينته القديمة ويحرسها بغطرسة. يُحث المرء أن يصرخ بوجهه: "زئير جيد يا أسد". يتحول على بعد طرفة نارية من المدينة إلى دوامة، وينقلب على نفسه في دائرة من الصخور، مقلدًا رغبة وغضب المحيط. تسمى هذه البقعة الشريرة وايلد جيفار "الخطر الشديد". إنه أكثر إخافة، وأقل خطورة في الوقت ذاته من ضفة سانت غوار. يجب ألا نحكم دائمًا من خلال المظاهر.

عندما تزيج الشمس الغيوم برفق، وتشرق من خلال فتحة في السماء، حينها لن يضاهي شيء جاذبية باخاراخ. كل هذه الواجهات المتهاكمة المتجعدة تنبسط طلعتها وتتمدد. تشكل ظلال الأبراج والريشات آلاف الزوايا الغريبة. تصل الأزهار -توجد أزهار في كل مكان- إلى النوافذ في الوقت نفسه مع النساء، ونرى على كل عتبة في مجموعات، مبتهجة أو هادئة، أطفالًا وشبابًا، يتشمسون بشكل عشوائي في الشمس. تقول الابتسامة الشاحبة لكبار السن: "يوم آخر إذن" وتقول النظرة الحلوة للأطفال: "ليس بعد".

يتجول رقيب بروسى بزيه العسكري بين هؤلاء القوم الطيبين، مع تعبير بين كلب وذئب. مع ذلك، سواء كان ذلك بسبب روح البلد أو الغيرة من بروسيا، لم أر في أي من الإطارات المعلقة على جدران النزل صورة لأي رجل عظيم، باستثناء صورة روكوكو جانبية للفتاح فريدريك الثاني الذي كان نصف نابليون ونصف لويس الرابع عشر، والذي كان بطلاً حقيقيًا، ومفكرًا حقيقيًا، وأميرًا حقيقيًا أيضًا.

يُنظر للغريب في باخاراخ باعتباره ظاهرة. تتابع المسافرين عيونًا ذاهلة. في الواقع، لا أحد يزور هذه العاصمة العتيقة، مدينة الحزن هذه، باستثناء، ربما، رسام فقير يشق طريقه سيرًا على الأقدام، حاملًا حقيبة على ظهره. مع ذلك، لا يجب أن أنسى ذكر أن في الغرفة المجاورة توجد صورة تدعي أنها تمثل أوروبا. فتاتان جميلتان، بأكتاف عارية، وشاب وسيم، يغنون. مع هذا المقطع أسفلها:

أوروبا الفاتنة، حيث فرنسا مبتسمة بالكامل

تمنح القوانين للموضة، والجمال للرقص

المتعة، الفنون الجميلة، وكل وجه حلو وجميل،

يشكل العبادة الرئيسية لعرقك السعيد.

هناك تحت نافذتي عالم صغير كامل، سعيد وساحر، فناء من نوع ما، يجاور الكنيسة الرومانية، التي يمكننا الاقتراب منها عبر درج متهدم. يلعب ثلاثة أولاد صغار وفتاتان في العشب الذي يصل حتى ذقونهم. تتقاتل الفتاتان بين الحين والآخر طواعية مع الأولاد. لا يمكن أن تصل أعمار الخمسة جميعًا إلى خمسين عامًا.

وراء العشب الطويل هناك أشجار محملة بالفاكهة. ووسط الأوراق فزاعتان ترتديان مثل زي لوبينز من الأوبرا الهزلية، ورغم أنهما، ربما، لديهما تأثير في تخويف الطيور، إلا أنهما فشلنا في فعل ذلك مع طائر الزعرة. تتلأل الأزهار في كل ركن من أركان الحديقة تحت أشعة الشمس، وحول هذه الأزهار أسراب من النحل والفراشات. النحل يهتمهم، والأطفال يثرثرون، والطيور تغني، وعلى مسافة قصيرة حمامتان تنقران.

ظللت أعجب بهذه الحديقة الصغيرة الساحرة حتى حل الليل، ثم أتتني نزوة زيارة أطلال الكنيسة القديمة المكرسة للقديس فيرنر، الذي استشهد في أوبيرفيزيل. وصلت إلى أول مجموعة من الدرجات المغطاة بالعشب، نظرت حولي، وأعجبت بالسماء التي أتى منها ضوء كافٍ مكاني من رؤية أطلال القلعة القديمة. ثم وقعت عيناى على حديقتي الساحرة من الأطفال، والطيور، والحمامات، والنحل، والفراشات والموسيقى - حديقة الحياة والحب والفرح - واكتشفت أنها مقبرة.

الفصل التاسع عشر.

--

"حريق، حريق"

لورش. - حادثة. - صراع الهيدرا والتنين. - فندق بـ... في لورش.

حلت الثانية عشرة في باخاراخ، فذهبنا إلى الفراش، أغلقنا أعيننا وحاولنا إزالة أفكار اليوم. وصلنا إلى الحالة التي يكون لدينا، في ذات الوقت، شيء مستيقظ وشيء نائم، عندما يستريح الجسد المنهك، بينما لا يزال العقل العاصي يعمل. وهكذا، بينما نحن بين العقل والجسد، لا نائمين ولا مستيقظين، أزعج ضجيج ظلام الليل فجأة، ضوضاء غريبة لا توصف، نوع من التذمر الخافت، متوعد وحزين في آن، ومختلط بالرياح الليلية. بدا أنه قادم من المقبرة العالية الواقعة فوق القرية. أنت مستيقظ، تقفز، وتنتسمع. ما هذا؟ إنه الحارس الذي ينفخ في بوقه ليؤكد للسكان أن كل شيء على ما يرام، وأن بإمكانهم النوم بلا خوف. أعتقد أنه من المستحيل اختيار طريقة مخيفة أكثر.

يمكن للشخص أن يستيقظ من نومه في لورش بطريقة أكثر درامية. لكن يا صديقي، اسمح لي أولاً أن أخبرك عن أي نوع من الأمكنة هي لورش.

لورش بلدة كبيرة، تضم حوالي ألفاً وثمانمائة نسمة، تقع على الضفة اليمنى لنهر الراين، وتمتد حتى مصب ويسير. إنها وادي الأساطير، بلد الجنيات. تقع لورش عند سفح سلم الشيطان، وهو صخرة عالية وعمودية تقريباً، صعداها غيلغن الشجاع عندما كان يبحث عن خطيبته، التي خباها العفاريت في قمة الجبل. وفي لورش، اخترعت الجنية آفي - كما تقول الأساطير - فن الحياكة، من أجل أن تكسو حبيبها هيبوس. وهنا صنع أول نبيذ أحمر لنهر الراين. وجدت لورش قبل شارلمان، ويوجد تاريخ بميثاقها يعود للعام 732. وهنا أقام هنري الثالث، رئيس أساقفة ماينز في عام 1348. لا يوجد في الوقت الحاضر فرسان رومانيون ولا جنيات ولا رؤساء أساقفة، مع ذلك، فالبلدة الصغيرة سعيدة، والمشهد رائع، والسكان مضيافون. للمنزل الجميل الخاص بعصر النهضة، على حدود نهر الراين، واجهة أصيلة وثرية مثل تلك الموجودة في قصر ميلان الفرنسي. تحمي القلعة التي تزخر بأساطير سيبو القديمة، إن جاز التعبير، البلدة من قلعة فورستنبرغ التاريخية، التي تهدد البلدة بواسطة حصنها الضخم.

لا شيء يضاهي سحر رؤية مستعمرة الريفيين الصغيرة المبتسمة هذه تزدهر تحت هذين الهيكلين العظيمين المخيفين اللذين كانا في يوم من الأيام قلعتين.

قبل أسبوع، حوالي الواحدة صباحاً ربما، كنت أكتب في غرفتي، عندما أدركت فجأة أن الورقة تحت قلمي صارت حمراء. رفعت عيني واكتشفت أن الضوء لا يأتي من المصباح الخاص بي، ولكن من نافذتي، بينما يرتفع من حولي ضجيج طنين غريب. سارعت لأتأكد من السبب. كمية هائلة من اللهب والدخان تتصاعد من السقف فوق رأسي، محدثة ضوضاء مخيفة. كان الفندق بـ...، المسكن المجاور لي، وقد اشتعلت فيه النيران. استيقظ ساكنو النزل على الفور. والقرية كلها في حالة هرج ومرج. ويسمع صراخ "حريق! حريق!" في كل

شارع. أغلقت نافذتي وفتحت الباب. كان الدرج الخشبي الكبير في فندقتي ذي النافذتين، يلامس المنزل المحترق تقريباً، ويبدو مشتعلًا أيضًا. ترى من أعلى الدرج حتى أسفله، حشدًا من الظلال محملة بأشياء متنوعة، يسرعون، ويتزاحمون، ويفجون الطريق، بكل سرعة ممكنة، إلى الأعلى أو إلى الأسفل. كان نزلاء المكان ينقلون أمتعتهم، أحدهم شبه عارٍ، وآخر في سروال تحتِي، وآخر في قميص، بدوا مستيقظين بصعوبة. لم يصرخ أحد. لم يتكلم أحد. كان الأمر يشبه طنين رابية نمل.

بالنسبة لي - كون كل شخص يفكر في نفسه في مثل هذا الوقت - كان لدي القليل من الأمتعة أودعتها في الطابق الأول، لذلك لم أواجه أي خطر سوى أن أجبر على الهروب من خلال النافذة.

نشأت عاصفة في هذه الأثناء، وهطل المطر بغزارة. وكما يحدث دائماً، كلما زاد الاستعجال كلما قلت السرعة. تلا ذلك لحظة من الارتباك المخيف، البعض أراد الدخول، والبعض الآخر أراد الخروج. ربطت الأدراج والطاولات بالحبال وأنزلت من خلال النوافذ، ألقيت المراتب وقلنسوات النوم وحزم الكتان من أعلى المنزل نحو الرصيف. هزت النساء أيديهن بيأس، وبكى الأطفال. بمجرد اشتعال النيران في المخزن، وصلت عربات الإطفاء. يكاد يكون من المستحيل منحك فكرة عن الغضب الذي هاجمت به المياه عدوها.

ما إن مرت الأنابيب فوق الحائط حتى سُمع صوت هسهسة، وبدأت ألسنة اللهب، التي بدت كتيار من الفولاذ المصهور تتدفق، تزار، تنتصب، تقفز بشكل مخيف، وتفتح أفواهاً مروعة، وتلتق بألسنة لا حصر لها جميع أبواب ونوافذ الصرح المحترق. اختلط الضباب بالدخان، وتناثروا في أحجام مع كل نسمة من الريح، ثم فُقدوا، النفوا وتأرجحوا في ظلام الليل، بينما استجاب هسيس الماء لهدير النار.

لا شيء أكثر فظاعة وعظمة من قتال فطيع بين هيدر¹⁵ وتنين.

قوة الماء التي دفعتها المحركات في شكل أعمدة كانت غير عادية. تكسر الإردواز والقرميد وتنتثرهما نتيجة لتلك القوة. صار المشهد مهيباً بعدما اختفت الأعمال الخشبية. انطلقت وسط الضوضاء والدخان أعداد ضخمة من الشرارات من ألسنة اللهب. وقفت مدخنة لبضع دقائق وحيدة فوق المنزل، مثل برج حجري، لكن سرعان ما وجه أنبوب نحوها وسقطت بقوة في الخليج. كان من الممكن إدراك نهر الراين والقرى والجبال والآثار - كل أطراف البلاد - وسط الدخان واللهب والعواصف. كان مشهداً مخيفاً حقاً، مع ذلك كان فيه شيء من المهابة. إذا نظرنا في التفاصيل، لم يكن هناك ما هو أكثر فرادة من أن نرى، على فترات، بين الدخان واللهب، رؤوس الرجال تظهر في كل مكان. وجّه هؤلاء الرجال مواسير المياه على النيران التي قفزت، وتقدمت وانحسرت. انفصلت كتل كبيرة من الأعمال الخشبية عن السطح، وتدلّت متعلقة بمسمار، بينما سقطت كتل أخرى وسط ضوضاء وشرر. تظهر في داخل الشقق أوراق الجدران المزخرفة وتختفي مع كل هبة رياح. على جدار في الطابق الثالث كانت هناك صورة للويس الخامس عشر محاطاً بالرعاة والراعيات. نظرت لهذا اللوحة باهتمام خاص. صمدت لبعض الوقت في النار، ولكن أخيراً دخل اللهب إلى الغرفة، ومدد أحد ألسنته، واستولى على اللوحة، عانقت الإناث الذكور، تيرسيس تنزلن إلى جليسير، ثم اختفى الجميع في الدخان.

على بعد مسافة قصيرة من النزل كانت هناك مجموعة من الإنجليز نصف عراة، ملامحهم شاحبة وتعبّر عن الحيرة. يقفون بجانب الأمتعة المحفوظة بعناية. على يسارهم مجموعة من أطفال المكان، الذين ضحكوا على رؤية كتلة من الخشب تندفع نحو النار، وصفقوا بأيديهم في كل مرة تصادف أن خراطيم المياه تعمل بينهم. كان هذا هو حريق فندق بـ..، في لورش.

¹⁵ في أساطير اليونان، هي حية عظيمة قتلها هرقل.

المنزل المشتعل هو في أحسن الأحوال منزل يحترق، لكن الأكثر حزنًا، أن يفقد الرجل حياته فيه أثناء فعل الخير للآخرين.

حوالي الساعة الرابعة صباحًا، أضحى الناس ما يُطلق عليه عمومًا أسياذ النار، ونجحوا في حصر السنة اللهب في الفندق بـ..، وبالتالي إنقاذنا. هجمت على الغرف مجموعة من الخدم، ينظفون بالفرش، ويكشطون، ويفركون، ويمسحون. في أقل من ساعة تم غسل النزل من أعلى إلى أسفل. الشيء الملحوظ أنه لم يُسرق شيء، جميع الأمتعة، التي أودعت على عجل وسط المطر، في جوف الليل، نقلت بعناية من قبل الريفيين الفقراء في لورش.

فوجئت في صباح اليوم التالي برؤية غرفتين أو ثلاثًا من غرف الطابق الأرضي للفندق المحترق سالمة تمامًا، ولا يبدو أنها الأقل فوضوية بسبب الحريق الذي اندلع فوقها. في ما يخص هذه الواقعة ستتفوق القصة التالية على الحالية في هذا البلد.

في وقت متأخر إلى حد ما، وصل رجل إنجليزي قبل بضع سنوات، إلى نزل في براو باخ، وذهب إلى الفراش. اشتعلت النيران في النزل في منتصف الليل. دخل الخدم إلى مسكن الرجل الإنجليزي، فوجدوه نائمًا، أيقظوه وأخبروه بما حدث، وأن عليه أن يخرج من المنزل بسرعة.

قال الإنجليزي وهو غير راضٍ على الإطلاق عن زواره الليليين: "الشیطان معك. أتوقظني لأجل ذلك! دعني وشأني أنا مرهق ولن أقوم. يبدو أنكم حزمة من الحمقى، لتتخللوا أنني سأركض عبر الحقول في قميصي في مثل هذه الساعة من أجل هذا، تسع ساعات هو مقدار الوقت الذي يسمح لي فيه بالراحة. اخمدوا الحريق بأفضل طريقة ممكنة. أما بالنسبة لي، فأنا في أفضل حال في الفراش، حيث أنوي البقاء. تصبحون على خير، أراكم غدًا".

ما إن قال ذلك حتى أدار ظهره للخدم ونام بسرعة. ما الذي ينبغي القيام به؟ اكتسحت النار الطابق الأرضي. وهرب النزلاء لينقذوا أنفسهم، بعد أن أغلقوا الباب على الإنجليزي النائم بهدوء، ويشخر بشدة. النيران مروعة، لكنها أخدمت أخيرًا بصعوبة بالغة. صباح اليوم التالي، جاء الرجال الذين كانوا ينظفون القمامة إلى غرفة الرجل الإنجليزي، فتحوا الباب ووجدوه في الفراش. قال متثائبًا لدى رؤيتهم:

"هل يمكنك اخباري ما إذا كان هناك شيء يشبه رباط الحذاء في هذا المنزل؟"

ثم نهض وتناول فطوره بشهية، وبدا منتعشًا تمامًا. أثارت الحادثة استياء شباب المكان، الذين صنعوا ما يُطلق عليه في وادي نهر الراين (bourgmestre sec)، أي جثة الرجل الإنجليزي ذات الدخان، التي يعرضونها على الغرباء مقابل بضع ليردات.